

كتاب الهـ



مذكرات الأميرة جويدان

زوجة الخديوي عباس الثاني

مسلمة
ثقافية
لشعبية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

ناشر رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٦ - رمضان ١٤٠٠ - أغسطس ١٩٨٠

No. 356 — August 1980

مركز الاداوة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عندا - فى جمهورية مصر العربية
جنهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد المصري
والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى
سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا
بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لتقسيم الاشتراكات بدار الهلال فى ج • م • ع •
بحواله بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم يشيك مصر فى لأم مؤسسة
دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اصلا
تند الطلب •

كتاب الهلال



مجموعة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميرة حسنين

مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس الثاني



بقلم
الأميرة جويدان



دار الهلال

حكاية عائدة جويدان

حكم الماليك مصر لفترة طويلة ، والماليك هم طائفة من الناس اشتراهم الخلفاء العثمانيون ودربوا من كان منهم صالحا للعسكرية ليكون ضابطا أو جنديا فى جيش الخليفة ، وأصبح الماليك أكبر قوة فى تلك الامبراطورية التركية وحكموا البلاد الخاضعة لهم بواسطةهم .

واستقل الماليك بحكم مصر ، ولم يكن الخليفة العثمانى أو الباب العالى كما كانوا يسمونه ، يهتم بمن هو الحاكم أو المحكوم ، فان كل ما يهمه هو الإيرادات والأموال ، فالملوك الذى يحكم مصر أيا كان اسمه عليه أن يورد ائى الخزانة التركية الجزية أو الضرائب المطلوبة من البلد بالتمام والكمال ، ولا يهم كيف جمع الملوك الأموال من الناس ، ولا المبالغ التى جمعت منهم ، فالهم الا يقل المبلغ المدفوع عن الحصة التى حددت .

وطبعا فان هؤلاء الحكام كانوا يجمعون أقصى ما يمكنهم من أموال الشعب ، ويدفعون الضريبة ويستبقون ما حصلوه من زيادة لأنفسهم .

وكان تحت يد الملوك الحاكم ، حكاما أو ممالك آخرين يحصلون من ائناس ، وهم أيضا يحصلون بالزيادة ويستبقون الزيادة لأنفسهم كأجر لهم .

وكان المصرى هو الضحية الذى عليه ان يدفع ويدفع ولا ياخذ .

وهكذا أصبحت عند المصريين عادة لا زالت سائدة حتى اليوم عند البعض منا وهى عادة اخفاء النعمة خوفا من العين ، عين الحاكم ، وأعوانه من الجباه والملتزمين بتوريد المال والذين يجمعون لحسابهم ولحساب رؤسائهم ولحساب الحكام ولحساب الخليفة .

وفى نهاية هذه الفترة ظهر نابليون فى أوروبا ، وقاد الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ وحارب المماليك وانتصر عليهم فى معركة امبابة .

واستسلمت فلول المماليك عند بوابة امبابة التى بنى مكانها الآن مسجد خالد بن الوليد وسمى الشارع الذى وقعت فيه معاهدة الصلح افينو دى باى ، وترجم الاسم فيما بعد الى شارع السلام ، ولا زال الشارع موجودا حتى اليوم .

ونتيجة لحملة نابليون ، التى ادعت انها قادمة لتطبيق مبادئ الثورة الفرنسية وهى الحرية والاخاء والمساواة ، ان ظهرت امام الشعب المصرى والمصريين مفاهيم جديدة وافكار حديثة .

ثم زالت الحملة النابوليونية عن مصر سنة ١٨٠١ ، كما زالت غيرها من الحملات . وعاد المماليك محاولين ان يستردوا حكمهم ومجدهم وهيلمانهم .

ولكن المصريين كانوا قد أدركوا ان حكم المماليك ليس هو أبدع ما يكون ، وان الناس لها حقوق وعليها واجبات ، وليس الملوك الحاكم وحده هو صاحب كل الحقوق ، والفرد المصرى وحده هو حامل العصب والضغط .

وفى عام ١٨٠٥ ظهر جندى مرتزق من جنود الجيش
العثمانى قدم من بلدة قولة فى البانيا يقود فرقة البانية
كان الخليفة قد أرسلها الى مصر لمقاتلة الفرنسيين ،
فاحتلت لنفسها مواقع فى الجزيرة وامبابة .

هذا الرجل هو محمد على باشا الذى استطاع أن
يحكم البلد منتهزا فرصة الفوضى التى دبت فى البلاد
وفرصة الشسجار بين الممالك على تقسيم الغنيمة
ومستخدما عقله فى الإيقاع بينهم وبين بعض ، وفرصة
تأخر دفع المرتبات لمدة ستة أشهر ماضية ، وفرض
البرديسى لضرائب جديدة لدفع المرتبات مما أثار سخط
اهل القاهرة ، منتهزا كل هذه الفرص فحارب البرديسى
وباقى الممالك وانتصر عليهم .

وقبض محمد على ، على زمام مصر .

واستطاع أن يقنع الممالك بترك الحرب والاقامة فى
القاهرة حتى يكونوا تحت اشرافه ويأمن شرهم بعد أن
آمنهم على أنفسهم .

لعبة القلعة :

ولكن هل آمن محمد على على الممالك حقا ؟
الحقيقة انه أعد لهم مصيرا عجيبا للتخلص منهم
ببشاعة .

فقد دعا الى حفلة رائعة أعدت بمناسبة منح ابنه
الأصغر الأمير طوسون لقب الباشوية من السلطان تأكيداً
لرضاه عن محمد على وحكمه الذى دفع الجزية من المال

والرجال ، والمال معروف ، أما الرجال فهم هؤلاء الافراد المصريين الذين جندهم لحرب الوهابيين فى الجزيرة العربية اخروجهم على طاعة السلطان .

وارسل السلطان التركى رئيس الخصيان بقصره الى مصر ليسلم طوسون براءة الباشوية وهدية من السلطان عبارة عن خنجر وسيف مرصعين .

ودعى محمد على اكابر القطر وأعياناه والعساكر لحضور تشريفات البراءة ، وتقرر الباس الباشا الجديد ملابس اللقب يوم الجمعة اول مارس سنة ١٨١١ ، وكان ضمن من دعى لشهود الاحتفال ، مماليك مصر .. ولبس كل منهم أفخر ما عنده من ثياب وركب أحسن ما يملك من خيل ، وتقلد المع ما عنده من سلاح .

وفى الساعة الثانية صعد المدعوون جميعا الى القلعة ، وكان الوالى يستقبل الممالك البكوات بمظاهر التعظيم والتكريم ، ويلاطفهم ، ويحادثهم فترة من الزمن يشربون فيها القهوة ثم ينصرفون من حضرته ، ويضرب النفر ايدانا بانصرافهم للانضمام للموكب .

كان ترتيب الموكب كالتالى :

فى المقدمة فرقة الأدلة بقيادة شخص يدعى أوزون على ، ثم الوالى ، ثم آغا (الرئيس) الانكشارية ، والمحاسب (وزير المالية) وخلفه عدد من الكبراء حسب ترتيبهم ، ثم الألبانيون بقيادة شخص يدعى صالح فوج وبعدهم الممالك يتقدمهم سليمان بك البواب . وخلفهم المشاة والفرسان وأرباب المناصب .

وسار الموكب جهة ميدان الرملية فى طريق معوج منحوت فى الصخر حتى باب يسمى باب العزب اجتازته

مقدمة الموكب ، وعندئذ أمر صالح فوج قائد الألبان بإغلاق الباب الحديدى الكبير ، ثم أعطى أوامره لعساكره فتسلك الألبان على جانبى الطريق ، وأخذوا مراكزهم لإطلاق النار .. وتحصنت المؤخرة أيضا .

ووصل الممالك الى الباب فوجدوه مغلقا ، وأرادوا التفهقر لوصولهم الى الرحبة الوسطى من القلعة فلم يتمكنوا لان الخيول كانت تسير فى نظام خلف بعضها والممر ضيق حتى انها تحتك بجوانبه الصخرية .

وفتح النار عليهم من الخلف والامام ، ومن أعلى ، وأسقط فى أيدي الممالك ، وارتبكوا ، وسالت الدماء ، ونزع بعضهم ما كان عليه من فراء وثياب ثقيلة وترجلوا عن خيولهم ، وشهروا سيوفهم ، وقد تملكهم جنون الحنق والفيظ ، ثم اليأس فلم يكن أمامهم خصوم يحاربونهم ، بل رصاص يهطل عليهم من أعلى الأسوار التى تحف بالطريق ، ومن النوافذ القريبة ، ومن الخلف ، وسقط شاهين بك الذى كان ضمن مقدمة موكب الممالك صريعا ، وقطعت رأسه ، وأخذها من قطعها وأسرع بها الى الباشا ليأخذ البقشيش ، واستطاع سليمان بك البواب أن يصل الى باب الحريم وصرخ :

— أنا فى عرض الحريم .

والعادة فى ذلك الوقت أن من استنجد بالحريم ينجد ، ولكن من الذى ينجده !

ووصل حوالى ثمانية من الممالك فى فرارهم الى مكان كان يقف طوسون باشا وسألاه النجدة ، ولكنه لم يلبس لاستنجداهم .

وصارت القلعة فى ذلك اليوم ميدانا للقتل والدبح ،

وقطعت رءوس المماليك ليرأها الباشا ، وسحبت أجسادهم بالجبال ، ولم يرحم أحد في هذه المذبحة حتى الخدم وأولاد أهالى البلد وغيرهم ممن تزينوا بأحسن زينة ورافقوا مواكب المماليك بنوع من التفاخر .

ولم ينج من المذبحة غير مملوك واحد هو أمين بك الذى كان قد تأخر لظرف طارئ فلم يخلق غير الصف الأخير ، فلما سمع صرير الباب الحديدى وهو يفلق ، ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة ، وأخذ يبحث عن منفذ للهرب فلم يجد أمامه الا أسوارا ارتفاعها عشرون مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استفز الحصان فوثب به فى الهاوية التى تحت قدميه فتهدم الجواد ، وأصاب الرجل اغماء بسيط أفاق منه بسرعة وجرى من هناك حتى وصل الى اقليم الشرقية ومن هناك استطاع الهرب الى مدينة عكا .

رواية اسكندر ديماس :

وقد اثرت هذه المذبحة فى الكاتب الفرنسى الشهير الذى عرف بكتابة قصص الفروسية ، اسكندر ديماس الاب فآلف كتابا سماه خمسة عشر يوما فى سيناء وصف فيه مذبحة المماليك ، وان غير فى بعض الوقائع ، اذ ذكر ان خمسة عشر مملوكا قفـسـزوا من حائق فماتوا هم ودوابهم الا اثنان منهما نهضا من سقطتهما وهربا ، ثم وصف هروبهما الطويل والخمسة عشر يوما التى قضياها فى اجتياز صحراء سيناء .

ومهما يكن فان محمد على تخلص من المماليك نهائيا فقد بلغ عدد قادة المماليك الذين قتلوا فى مذبحة القلعة

أربعمائة وسبعون مملوكا ، وكان محمد على جالسا
يرقب المذبحة ويدخن النارجيلة « الشيثة » فى مكان
لا يراه فيه أحد ويرى منه هو كل شيء .

وبعد المذبحة خرجت جنوده الى المدينة والى بيوت
المماليك تنهب وتسلب وتقتل رجالهم وصبياتهم وتهتك
أعراض نسائهم وتسلب حليهن ، ويقال ان امرأة أحد
المماليك كان بيديها أساور كثيرة فقطع الجندى التركى
يديها بسيفه ليستخرج الأساور بسهولة .

زيادة الخير :

وانتهى المماليك واستتب الأمر فى مصر لمحمد على
ودفع للباب العالى أى للسلطان من الأموال ما جعل محمد
على يستحق لقب الباشوية وان يتقرر حكم مصر له
والأمرته من بعده بالوراثه . . وكل شيء بشمته .

ومحمد على ، وجدها لقمة سائفة سهلة ، فتحت يده
بلد كبير ملئ بالخير والنساس والأموال فلا مانع من
توسيع رقعة الأرض الملوكة ، وحارب محمد على
بالمصريين فى كل مكان استطاع أن يحارب فيه . . فى
السودان ، فى الحجاز ، فى المورة باليونان ، وهى الحرب
التي غرق فيها الأسطول المصرى .

والمهم ان حياة وحكم محمد على قضيا فى حروب
انتهت باستنزاف موارد المصرى المسكين حتى مات سنة
١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول .

وانكشيت البلاد ، واصابها الفقر .

الشيقياليه :

ثم جاء اسماعيل باشا الى الحكم خلفا لعمه سعيد باشا سنة ١٨٦٣ ، واسماعيل تربى في القصور ، وتربية القصور الناعمة غير تربية جنسدى مرتزق كجده ، فالجنسدى المرتزق رجل ضاقت به أسباب الرزق كما حدث لمحمد على بعد أن أفلس محل الدخان الذى كان يملكه فى بلدة قوله فلم يجد عملا يمشى منه ولم يكن لديه شيئا يملكه غير شبابه فانضم الى الجيش . . أى جيش ، يعمل فيه ، فهو لم يحمل السلاح بنوع من الوطنية أو المبادئ ، إنما هو عمل من الأعمال .

ولكن اسماعيل تربى في القصور فهو ابن ابراهيم الابن الأكبر لمحمد على وقائد جيوشه الذى مات تاركا الولد لجده بدله وينعمه ، وأصبح اسماعيل بطبعه يبحث عن الترفيه والترف ، واعتقده فى نفسه أنه شيقياليه ، أى فارس من فرسان العصور الوسطى وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسان حرب ، بل فرسان استعراضات على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة ، يتفانى فى حبها ، ويضحى فى سبيلها بالغالى والرخيص .

وهذه المرأة كما يقول الكاتب هارولد نيكلسون فى كتابه « التصرف السليم » .

« تقضى تقاليد الفروسية ان لا تكون زوجة الرجل ، او احدى جواربه الخاضعات له ، فالزوجة لها وضع خاص فى زناصة البيت وانجاب الخلف الصالح الذى سيرث عرش الفارس ، والجاريات وغيرهن نزوات عابرة تثقن فى ساعات وأوقات اللهو والمرح :

ولكن تلك المرأة يجب ان تكون شيئا ممتازا لها
اعتبارها ووضعها ، وان تكون بعيدة المنال على الفارس
لا يستطيع اخضاعها لسلطانه او التحكم فى مصيرها ،
وتكون هى من جانبها قادرة على الصد وعلى المنح حسب
هواها .. وعلى فارسها ان يقدم ما عنده من عطايا وان
يجثو عند قدميها ، ولا مانع من انزال الدمع امامها
فتمسحه له بمنديلها الخالد الذى يعد وقوعه فى يده
دليلا على رضاها عنه واستسلامها له حتى ان ياجو
الخائن سرق منديل ديدمونة وسلمه لزوجها عطيل
فقتلها معتقدا خيانتها له فى مسرحية شكسبير الشهيرة .

وهكذا بالنسبة لاسماعيل فان صاحبة المنديل كان
لابد ان تكون ذات اهمية خاصة .. واختار اسماعيل
أوجينى امبراطورة فرنسا .. ولكي يدعو الامبراطورة
لزيارته فى مصر صنع حضارة هامة تتلاءم مع اهمية
شخصيتها ، وكانت المناسبة التى ستحضر فيها هى
افتتاح قناة السويس ، واقامة اول خط سكك حديدية
مصرية من الاسماعيلية الى القاهرة ، وانشاء دار
للأوبرا تتفرج فيها الامبراطورة وكلف ملحننا ايطاليا
مشهورا بتلحين أوبرا جديدة خصيصا لهذا الافتتاح هى
أوبرا هايدة التى كتب مادتها التاريخية مريت بك
المؤرخ ومؤسس المتحف المصرى والذى لا يزال يوجد
شارع باسمه فى القاهرة ، ومن هذه المادة التاريخية
الف كامى دى لوكلى المسرحية .

هايدة :

وتدور وقائع أوبرا هايدة حول القائد راداميس الذى

يجب عايدة الحبشية التى اختطفت وبيعت لتعمل
وصيفة لبنت فرعون الأميرة امريس التى تحب بدورها
القائد راداميس وهاجم الأحباش مصر بجيش ضخم
يقوده الملك عمو ناصر ملك الحبش شخصيا ، ووقعت
عايدة بين نارين ، فهى ابنة الملك عمو ناصر وتدعو الله
أن ينصره على القائد الذى أحبها وأحبته، ولكن راداميس
ينتصر ويأسر أباه ويحضره الى منفيس ، وأقيمت حفلة
استقبال للقائد ، وفى الحفل صاح الناس طالبين قتل
الأسرى ، ولكن القائد طلب من الفرعون العفو عنهم ،
وعفا الفرعون عنهم على أن يبقى ملك الأحباش وابنته
رهائن حتى لا يعاود الأحباش الحرب ، ووافق فرعون
الذى أعلن خطبة باراداميس لابنته مع تعيينه وليا
للعهد .

وذهبت عايدة الى المعبد كما ذهب والداها وحرضاها
على معرفة الطريق الذى سيسلكه الجيش المصرى من
حببها القائد ليقابله الأحباش ، وحضر القائد الذى كان
يريد أن يهرب مع عايدة الى حيث يتمتعان بحبهما ،
فهو لا يريد أن يتزوج ابنة الفرعون الأميرة امريس التى
ظهرت فى هذه اللحظة ومعها الكاهن ورئيس الحرس
وامسكوا بالقائد لخيانته .

وحضر الفرعون وحكم على باراداميس بالدفن حيا ،
وأعدت له حجرة تحت الأرض ودفن بها وأغلقت عليه
بالأحجار .

وفى القبر ظهرت عايدة التى كانت قد غافلت الكهنة
ونزلت الى القبر لتموت مع حببها .
وانتهت الاوبرا بباراداميس يحتضن حببته عايدة
وسط الظلام .

وهكذا فان اسماعيل باشا الذى تخيل نفسه فارسا من شيفاليهات المصور الوسطى قد نجح فى علاقته بالامبراطورة اوجينى التى ظلت محافظة على العهد حتى بعد أن زال عنها وعنه العرش فهى تزور أسرته مرة كل عام لتجتر الذكريات كما جاء فى مذكرات الاميرة جويدان .

النقطة السوداء :

والمهم ان مشاريع اسماعيل كثرت وزادت ففرقت البلاد فى الديون ، وفى نفس الوقت خافت الأسرة منه فاستطاعت أن تعزله عن العرش وتعين توفيق بدلا منه .

وتوفيق فى تاريخنا نقطة سوداء ، فانه يبدو ان الأسرة التى عزلت اسماعيل النشيط رأت أن تعين اضعف امرائها شوكة خديويا جاهلا لا يدرك مجرى الأمور فحين طالب الضباط المصريون مساواتهم فى المرتب بالضباط الأتراك فى الجيش تصرف معهم بطريقة أدت الى قيام الضباط المصريين بثورة ضده بقيادة عرابى .. وهو بدلا من ارضاء الثائرين قرر اغلاق المدارس التى تسببت فى تعليم الناس ان لهم حقوقا ، كما أغلق المصانع التى أدت الى وجود تجمعات عمالية ثم ...

ثم كانت الجريمة حين استنجد بالجيش الانجليزى ليضرب المصريين ويحتل مصر .

زوج جويدان :

وفى سنة ١٨٩٢ توفى توفيق واستندى ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى آخر الخديويين المصريين فقد أبطل اللقب من بعده وسمى من حكموا بالملوك .

كان عباس فى الثامنة عشرة يدرس فى كلية «التريينوم» بالنمسا وهى كلية مخصصة لأبناء الملوك والأمراء .

وبدا عباس حكمه بمسرحية ، فطلب من رئيس الوزراء مصطفى فهمى الذى اشتهر بأنه صنيعة الانجليز ان يقدم استقالته بسبب سوء صحته ، ولم يستسلم رئيس الوزراء ، بل طلب من الخديوى استشارة اللورد كرومر ، وكان كرومر هو المعتمد البريطانى فى مصر ، والحاكم الانجليزى الفعلى لها ، فما كان من الخديوى الا ان اصدر قرارا باقالة الوزارة لاعتلال صحة رئيس الوزراء ، وعين بدلا منه حسين فخري باشا .

وقابل المصريون هذا التغيير بفرحة وأمل .

ولكن كرومر لم يستسلم له وهدد عباس ، وانتهى الأمر بتعيين وزارة جديدة ورئيس وزراء جديد هو رياض باشا ، وارسل الخديوى خطابا الى اللورد يستسمحه ويعلنه انه سياخذ بنصائحه فى المستقبل .

كانت المسرحية الثانية هى حين سافر الى الصعيد فى رحلة عسكرية للتفتيش على الجيش وفى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ وعند حدود السودان فى بلدة حلفا استعرض فرقة عسكرية مصرية بقيادة ضباط انجليز فابدى انتقادات اغضبتهم وأدت الى ان اللورد كتشنر سردار الجيش

(أمين سر) فى ذلك الوقت قدم استقالته ، فاضطر الخديوى الى الاعتذار له رسميا .

على ان أهم حادث فى عهده هو حادثة دنشواى .

وفى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ كان بعض الضباط الانجليز يصطادون الحمام فى بلدة دنشواى ، وهى بلدة تابعة لمحافظة المنوفية واسمها الآن « الشهداء » . . وقد أصابت رصاصة من رصاص الانجليز حطبا فى جرن فأوقدت فيه النار وجرحت امرأة تصدت لهم فهاجمهم الاهالى ودارت معركة بالطوب ضد الانجليز . . وأصيب بعض الضباط وجرى احدثهم لمسافة كيلو مترات سقط بعدها ميتا ، وثار الانجليز واجريت محاكمة فى شبين الكوم وحكم بالاعدام على أربعة كما حكم على آخرين بأحكام مقيدة للحرية مختلفة بين الاشغال والسجن وحكم على البعض بالجلد . . وشنق الأربعة فى نفس بلدتهم دنشواى أمام أهلهم وأقاربهم .

وكان عباس معتادا على السفر الى الأستانة فى تركيا لقضاء الصيف هناك ، وفى صيف سنة ١٩١٤ وهو فى مصيفه هذا أطلق عليه شاب مصرى الرصاص فأصيب بجروح وقتل الحرس الشاب المصرى ، فلم يعرف الدافع للجريمة .

وسى نفس السنة قامت الحرب العالمية الأولى ، وما دام الرجل لم يمت بالرصاص فليخلع عن العرش ، وهكذا خلعه الانجليز من منصبه ومنع من العودة الى مصر وعين بدلا منه السلطان حسين كامل أكبر أمراء أسرة محمد على سنا .

وجویدان زوجة هذا الخديوى كما نرى من مذكراتها

التي كتبها تريد ان ترينا انها امرأة طيبة خيرة متدينة ،
وان زوجها ايضا يتميز بهذه الصفات ، ولكن القلم يفلت
منها في بعض الحالات فتظهر الرجل على حقيقته ، جاهل
محب للمال ، فهو كرجل جاهل يعتقد ان قراءة الكتب
مضيعة للوقت ، وهو حين يراها تقرا في كتاب
يسألها :

- ما هذا الحمار ؟

ثم هي تحدثنا عن عقلية زوجها التجارية التي جعلته
يهتم بالتجارة والمال وتنمية الثروة أكثر من أى شيء
آخر . . . والحق ان عباس كان ناجحا في هذا المجال فانه
عندما تأكد انه ان يعود الى مصر تنازل للملك فؤاد عن
العرش مقابل ثلاثين ألف جنيه كراتب سنوى ، كما انه
لما مات في جنيف يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ قُدرت
ثروته رسميا بحوالى سبعة ملايين من الجنيهات .

والقارئء للذكرات جويدان يلاحظ انها تجاهلت
الأحداث السياسية ، ربما لأنها حين كتبت مذكراتها
خافت من ان تقحم في الاعيب السياسة .

سعد رضوان

الأميرة تصف الأفراح والحفلات المصرية

قالت الأميرة جويدان فى وصف الأفراح والاستقبالات
المصرية :

« لا توجد أمة فى العالم تتفنن فى إقامة أفراحها كلها
كما يفعل المصريون ، فانهم لا يدخرون شيئا من أسباب
السرور والانشراح الا ادخلوه فى أفراحهم مهما كلفهم
هذا ، وليس ذلك مقصورا على الأغنياء والموسرين
منهم فقط ، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضا
تنفق على الأفراح نفقات تربو كثيرا على ما تسمح به
ثرواتها ، وكثيرا ما يكون الزواج سببا فى إفلاس بعض
العائلات وضياع مالها ، وأكثر النفقات تكون
فى ليلة الخطبة فى بيت الزوجة ، وليلة الزفاف فى
بيت الزوج ، ثم وصفت حفلة زفاف ، ودهشت كثيرا
لتنوع أسباب اللهو والهدايا الغالية .

وصف حفلة زفاف

كانت العروس ابنة لأخذ الباشوات ، تتجاوز سنها
الثالثة عشرة ، وكانت مصابة بالتهاب رئوى شديد ،
ولكن الطبيب قرر أنه لا خطر هناك يستدعى تأخير موعد

الزفاف ، فضلاً عن أن التأخير في ذاته يؤكد خسارة كبيرة ، اذ تستدعى في ليلة الزفاف عدة أجواق تمثيلية ومطربون وراقصات وغير ذلك ، أضف الى هذا أن المصريين جميعاً يتشائمون من تأخير الزفاف عن مواعده .

كانت أسباب السرور بالفة حدا لا يتصوره العقل ، فالمصرى في اقامة افراحه يأبى ان يستمع لصوت العقل ، ويتبخر تفكيره تحت أشعة الشمس الحارة ، ويستسلم للأمل (ان شاء الله) فربما انتج القطن محصولاً جيداً يعوض عليه كل هذه النفقات ، ومصر بلد العجائب ، فكل شيء فيه جائز .

عند الساعة الثامنة مساء نبهتني وصيقتى في سراي (مسترد) الى أن الوقت قد حان لارتداء ملابسى والذهاب الى الحفلة ، فلم أر بداً من أن اتبعها الى غرفة الزينة ، واستسلمت لأيدى الوصيقات الكثيرات حتى تمت زينتى ، وبعد أن ثبت (اليشمك) فى (الهرطوس) بطريقة لطيفة ، ركبت العربى الى حفلة الزفاف ، وفى الطريق جعلت افكر فى هذه العروس الطفلة !!

ترى هل ستكون سعيدة ؟ لأنها لا تزال طفلة وخطيبها لم يزل فتى صغيراً ، فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وقد كان رفيق طفولتها وطالما لعبا معاً ، فلما أراد الحجاب أن يفرق بينهما جمعتهما الزواج ، وأصبح رفيق الطفولة رفيقاً للحياة ، وهذه الحالة نادرة فى مصر ، فغالبا لا تعرف العروس عن خطيبها شيئاً ولا تراه الا خلسة من وراء ستار نافذة مشبكة بالحديد ، فيا ترى أى عاطفة تجيش فى صدر الفتاة نحو

ذلك الغريب الذى سيصبح زوجها ، انه سينقلها من دور الفتاة الى دور الزوجة ، ولكن هذا هو كل شيء ، فالجو الذى سيحيط بها لن يتغير عن الجو الذى أحاط بها فى بيت أبيها ، فالنوافذ مغلقة والأبواب موصدة والأغوات على الأبواب والجوارى يقمن على الخدمة ، وغاية ما هناك تبدلت وجوه الخدم ، فهل تستطيع الفتاة أن تحب مثل هذا الزوج ؟ ولنفرض انها تريد أن تحبه ، فهل تستطيع أن تنفذ هذا العزم ؟ وهل الحب سلعة تؤخذ بالمساومة ؟ اليس الحب قوة قاهرة لا تستطيع النفوس صده ، فهل ضعف الحب حتى أنه لا يستطيع كسر هذا الأغلال ، أم أصبح الناس لا يستحقون نعمة الحب ؟

تدفقت الأنوار الى داخل العربة ، وصدحت الموسيقى ، واصطف الناس ، وتمهلت الخيل فى سيرها ليتسنى للقوم ذبح الذبائح امام العربة اكراما لى ، وأخيرا وقفنا امام باب الحريم ، حيث استقبلنى عدد كبير من النساء والجوارى ، فنزعت قناعى ومعطفى ، وقدمت الى مرآة مرصعة بالجواهر لاتفقد زينتى ، واستقبلتنى على رأس السلم أم العروس وأم العريس (وداد هانم) وهذه الأخيرة تعتبر فردا من أفراد العائلة ولها المقام الثانى بعد الأم .

ولم أستطع - رغم محاولتى - منع النساء من تقبيل ثوبى ، وسرت بين مظاهر الترحيب والسلام الى الصالون الذى أعدوا لى فيه مقعدا كبيرا مغطى بالكشمير ، وجلست باقى السيدات على وسائل من حرير .

القهوة

ثم جاءت القهوة تحملها (قهوجى كلفا) على صينية مستديرة وجعلت تصبها فى فناجين أطباقها مرصعة ، وفى فنجان تحمله جارية الى الهـوانم وهى خافضة الرأس ، ثم اتجهت كل الأنظار لى ، لأن الثقاليد تقضى بأن أكون أولى البادئات بشرب القهوة وهن من بعدى .

وبعد الانتهاء من شرب القهوة الأولى - أقول الأولى لأنه سيعقبها قهوات ، فمن عادة المصريين أنهم يدرون القهوة على الجميع كلما جاء ضيف جديد - طلبت رؤية العروس .

العروس

ارادوا احضار العروس الى ، ولكنى رفضت وأبيت إلا أن أذهب إليها بنفسى اكراما ليومها السعيد ، فوجدتها جالسة على مقعد عال فى صالون خاص ، فكانت كالتمثال المعروض ، ولما رأتنى مشيت الى ، فتأثرت لمنظرها ، واحتضنتها بين ذراعى ، ثم أخذت بيدها الى مقعدها ، فأننى أعرف انها مريضة لا تستطيع الوقوف رغم ما تبديه من جلد فى مغالبة آلامها واخفاء ما تشعر به وهى تبسم لجيش النساء الذى يمر أمامها ، وكل واحدة تدعو الله أن يقيها شر العين والحسد ، وتختلس النظرات الى المجوهرات تحاول أن تقدر ثمنها .

كانت العروس ترتدى ثوبا من الأطلس موشى بالذهب

وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر يتدلى من تحته نقاب يشمل كل جسمها ، وفى هذا النقاب أربعة أحجار كريمة عند الجبهة والدقن والخدين ، وفى أذنيها قرطان من البرلنت ، وفى جيدها ويديها عقود وأساور لا عدد لها .

كانت الدادة تنتهز فرصة خلو الفرقة من الزائرين لتقدم الى ربيبتها شيئاً من الرطبات لتجديد قواها ، فشعرت بدمعة تترقرق فى عيني رثاء لتلك الفتاة ، وحولت وجهى عنها وأنا أغالب نفسى كى لا تسبقنى الدموع ، اذ لا يجوز أن أبكى وبخاصة فى هذا الموقف ، وكان الدموع عرفت حرج مركزى فأجابت ندائى وامتنعت .

ثم شاهدت الهدايا المقدمة للعروس ، والى جانبها الهدايا المقدمة الى الدادة ، وهى هدايا من أنفس ما رأيت ، وكانت معروضة فى غرفة خاصة ، فيها سرير العرس ، وهو سرير فاخر ، قوائمه الأربع مرصعة بالأحجار الكريمة ، ولكن هذا السرير لا يستعمل الا ليلة العرس ، ثم يحفظ بعد ذلك كتذكار جميل لتلك الليلة السعيدة .

انتقلنا بعد ذلك الى الشرفات والنوافذ لنشرف على الألعاب الرياضية التى تجرى فى السلامك ، فجلست فى شرفة على مقعد وثير يحيط بى سرب من الهوانم ينظرون الى أى اشارة من يدي ليقدمن لى السجائر ، ولا أكاد أشير برأسى حتى أجد أنواع الرطبات أمامى ، وكان كل هذا يجرى بلطف وكرم لا تكلف فيه ، فالكرم عند الشرقيين ليس ظاهرة متكلفة ، وإنما هو شعور داخلى فياض ، حتى أن الضيف يشعر بأنه فرد من أفراد العائلة .

زفة العروس

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدا ، وهرعت السيدات الى غرفة الاستقبال ، ووقفن صفين ، وحملت الجوارى الى الهوائى أكياس الذهب ، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابة برهة ، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة ، وقد تدلت من التاج الذى على رأسها خيوط طويلة من الذهب ، وسارت الدادة وبعض الجوارى امام العروس يدعون لها بالوقاية من العين والحسد ، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات ، والقين الذهب والزهور تحت قدميها ، وكل سيدة تحاول أن تأخذ خيطا من الخيوط الذهبية ، لأنهن يعتقدن أن هذا يجلب الحظ ، وبعد أن أتمت العروس طوافها عادت الى الصالون وجاءت الراقصات .

الراقصات

كانت أجسام الراقصات تقريبا عارية ، وجملن يتثنين ويتلوين على نغمات الموسيقى ، ثم يقتربن برءوسهن من الزائرات وينظرن اليهن بتوسل ، فكانت الهوائى يلصقن الذهب فى وجوه الراقصات ، فلما لم يعد فى وجوههن مكان خال أخذت قبضات الذهب تتناثر عليهن وهن يلتقطنه بين صيحات الفرح والسرور ، وبعد ذلك عدنا الى الشرفات لنرى ما يجرى فى السلامك .

زفة العروس

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة ،

طلبت ربة البيت من السيدات السماح للعريس بالحضور بنفسه لشكرهن على التنازل بالتشريف ، وطبعاً أجابت السيدات الطلب بأدب وأخذت كل منهن تصلح زينتها وتتفقد ملابسها ، ثم وقفن صفين فى انتظار العريس .

وقف العريس فى الباب مبهوتا ، وقد أخذه بريق الجواهر والألأة الوجوه التى تنظر اليه ثم انحنى حتى كاد يلمس الأرض ، وكان فى انحنائه يشعر بأنه يقدر الجمال الذى يراه ، ويشكر السيدات على سماحهن له برؤية وجوههن سافرة ، وأخذ ينتقل من وجه الى وجه كأنه يريد أن يشبع النظر من تلك الوجوه ، ثم أخذته أمه من يده وقادته الى مكانى ، حيث قدم لى القهوة بيد ترتعش ، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة أخرى وغادر الصالة .

أغرب هدية

وفى هذه الليلة وقع ما أدهشنى وعقد لسانى ، ولأول مرة فى حياتى أغلق على فلم أعرف ماذا أصنع !! انحنى أمامى زوجة أحد الوزراء وقالت : « يا صاحبة السمو ، لقد عجزت عن اختيار هدية تعجب سموكم ، فعندكم كل ما تشتهى الأنفس ، وليس لى الا ان أقدم لكم أعز شئ عندي » ويظهر ان السيدات كن يعرفن هذه الهدية النفيسة ، لأنهن كن يتبادلن النظرات !!

ذهبت الهانم وعادت تقود طفلا صغيرا فى يدها ، يبلغ من العمر خمس سنوات ... انه طفلها .. ومع ذلك فهي تقدمه هدية الى .. !! ولأول مرة فى حياتى لم

اعرف ماذا اصنع .. وجمدت فى مكانى ، وتقدم الطفل حتى اخذ مكانه عند قدمى .. ولكى انقلد موقفى اخذت الطفل بين يدى ، واستعصت عن الكلمة بالقبلات .. ولكن موقفى ما زال حرجا ، فانى اشعر بأنه يجب ان افعل شيئا او اقول كلمة ، ولكن المفاجأة عقلت لسانى ، فخائنى الكلام .. ومن ذا الذى يتصور ان الاطفال تدخل فى باب الهدايا .. وما عسى ان يكون شعورى نحو هذا الطفل .. لقد اصبح الآن طفلى .. ولكن هذا جنون ... لماذا اهدتنى هذه السيدة طفلا ؟؟ انها لا تعرفنى ولا تعرف عن نفسى شيئا .. انها لا تعرف الا اننى زوجة الخديوى ، ولهذا اهدتنى طفلا .. اذن فالطفل لم يهد الى انا .. وانما اهدى الى زوجة الخديوى .

لم يستغرق هذا التفكير اكثر من بضع ثوان .. رفعت يدها راسى الى السيدة وابتسمت .. ثم اجلست الطفل جانبا .. وعانقتها .. فالانسان قد تخونه الالفاظ احيانا .

ولما علم الخديوى بمجمل القصة امتعض فى نفسه ، واصبح الطفل حملا ثقيلا علينا ، ولم ندر كيف نخلص من هذا الموقف ، الى ان انقلد الطفل نفسه ، فانه بعد ثلاثة ايام امتنع عن الطعام واكثر من البكاء ، طالبا امه التى تخلت عنه لغرض فى نفسها .. فأعدته الى امه ومعه عربتان محملتان بالهدايا .

وكان الخديوى لا يمل العمل ولا يناله التعب ، فكان يشرف على كل شيء بنفسه ، وكان الانسان يرى طربوشه الأحمر فى كل مكان ، وكان اذا رأى الفراشين يتباطون فى فتح صندوق أخذ الكماشة منهم وسحب المسامير وأزاح الفطاء ، وكان ماهرا جدا فى هذه الأعمال ، حتى اننى أهديته صندوقا به مختلف الآلات الصغيرة مصنوعة من الفضة ، وأظن انه ما زال يستعمل هذه الآلات الى الآن .

وكانت هذه الأعمال لا تعوق الخديوى عن المقابلات ، فاذا حضر أحد لمقابله ، أسرع (التشريفاتية) يبحثون عن سيدهم فى غرف القصر الكثيرة ، فاذا ما ظفر به أحدهم بعد جهد ، كان منظر الخديوى وملابسه لا يسمحان بالمقابلة ، فيسرع الخديوى الى غرفته الخاصة ، لدرجة أن (التشريفاتى) لا يستطيع اللحاق به ، وهناك يعد له خادمه الانجليزى (فريدريك) ما تيسر من الملابس للمقابلة .

وعند الظهر نتناول الغداء على خوان صغير مستدير ، وضع لنا حيث نريد ، وكنت أرتدى معطفا من الكريمر دى شين فوق ملابسى ، وأعطى رأسى بقناع خفيف ، ففى هذه الملابس كنت أستطيع الظهور أمام الرجال ، ويقوم على خدمتنا بربرى واحد .

وما كان أشهى الغداء معه ، ولم أر انسانا يجيد (تقشير) البرتقال مثله ، وتحدث عن أشياء كثيرة ، وكان ينقصنى فى قسم الاطفال اللبن وزجاجات اللبن والبودرة ، ولو اننى ذكرت مائة شيء لما نسيت ذاكرته الحادة شيئا منها . فاذا مضت مدة لم نتقابل فيها ثم رايته بعد ذلك ، كنت أدهش لمنظر وجهه . . انه وجه

جميل ، فنبعث من عينيه الرماديتين نظرة حادة ، وكان حاجباه يشعران بالشك ، ولكن كم كان يتغير هذا الوجه عندما يبتسم ، فانه يصبح جدابا . ولم أر مثل هذه الجاذبية فى وجه غير وجهه ، وكان قمه اجمل شئ فيه ، فانه كان يشبه فم الأطفال ، وعندما كنت اقول له ذلك كان يضحك كالأطفال ، ثم يقول لى (يا طفلى) ثم يعقب هذا مداغبا بقوله : « يا عروستى الصغيرة » وفى الواقع كنا نلعب كالأطفال ، فكنا نلعب كثيرا مع الكلاب التى كنا نحباها على السواء ، وكنا نتسابق فى الفرف والمرات ، ويجرى الواحد اثر الآخر ، وكنا أحيانا نشرب القهوة بصوت عال جدا كما لو كنا من العامة او نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى أينما يستطيع قدفها أبعد من الآخر ، ولا ضرر فى ذلك فانه كانت تقع فى حديقتنا . وغاية ما هناك كان الحراس يندهشون ، بالاختصار كنا نحب بعضنا .

على اننى هنا لا أريد أن اكتب عن الحب وانما اكتب عن البغضاء . عن الحرب . عن التشريد . عن الجوع . . ترى كم سيكون عدد الهاربين الذين ستنقلهم المحروسة ؟ والآخرى المتخلفون فى قولة ، ما هو حالهم ؟

عندما أهدت القيصة « أويجينا » يخت المحروسة الى اسماعيل باشا جد عباس حلمى لم تكن تفكر فى أن هذا اليخت سينقل جماعة من الهاربين . وأن أقدامهم الحافية ستدوس على فراشه الفاخر ، ولطالما اقلنا هذا اليخت فى رحلات جميلة .

وبعد الغداء يبدأ العمل من جديد ، وكان على أن أرتب ملابس الأطفال ، تساعدننى فى ذلك وصيفتى (هرملين) ومدربتى على الألعاب الرياضية (ميسكى)

فكنا الثلاثة نقوم بفعل شاق . وكانت (مايسكى) تشجعنى على الاستمرار فى العمل بقولها « ان هذا الاجهاد مفيد يا صاحبة السمو فانه يحفظ للجسم رشاقته » ولكنى بالرغم من هذا الاغراء كنت أشعر بالسرور عندما يدعونى لتناول (دندمة العصر) مع الخديوى ، وكان يحب الدندمة التركية ، وهى الخلوة بالقشطة . وفى هذه الأثناء ورد تلفراف بأن المحروسة ستعود حاملة ألفى هارب مسكين فشعرت بخجل أمام نفسى لأنى كنت أتناول الدندمة الشهية وهؤلاء حط عليهم البؤس .

وفى المساء أثناء عودتنا الى سراى المنتزة كنت أفكر طول الطريق فى هؤلاء الهاربين ، ولما استلقيت فى فراشى وأسدت (هرملين) الناموسية لتحمى جسمى من عضات البعوض شعرت ببغضاء نحو نفسى .



أمس وصلت المحروسة .. هل كان ذلك أمس ؟ هل تستطيع العين ان ترى هذا البؤس الكبير فى مثل هذا الوقت القصير ؟ وقفنا على سلم رأس التين ننظر الى البحر وقد نشرت صفحته تحت أشعة الشمس . وظهرت فى الأفق سفينة تجرى .. المحروسة .. وبالرغم من بعد المسافة فقد كانت أصوات الركاب تصل الى أذاننا ، وكأننا كانت السفينة تحمل بكاء ودموعا . واقتربت السفينة ووضحت الاصوات . والف البؤس بين مئات الانفس . فأرسلت موجة مظلمة من صيحات الألم تشق طريقها بين أمواج البحر الى قلوب من يواسيهم ويشفق عليهم فشعرت بانقباض فى قلبى ، وكأننا كانت تسيل منه الدموع ، فمددت يدي لأمسك بيد الخديوى

قلت له « هيا بنا نساعدهم » ولكنى لم أجد الخديوي الى جانبى . اذ كان قد ذهب .. وكنت فى مكانى وحيدة .

اشباح تذررت فى خرق بالية ، وقد فاحت رائحتها وهى تتدفق من السفينة الى سلم رأس التين فكانوا اشد الناس شبيها بالبشر ، فان ظلم الانسانية سلبهم حقهم فى الحياة ، وجعل منهم مشردين يؤساء مخبولين . لا مأوى ولا أمل . فام اتمالك نفسى من صب اللعنة على من كان السبب فى يؤس هؤلاء وامتلأت السراى الهادئة - التى أعدت لراحة حاكم البلاد - بأصوات البؤس والبؤساء !!

وقفت فى انصالة وامتدت ايدى النساء الى خرق بالية قدرة لففن فيها اطفالهن الجياع . فأى ذنب جناه هذا الطفل المسكين حتى يجوع ويعذب ؟ أى فائدة تعود على هؤلاء الوحوش البشرية من قتل الاطفال ؟ ما أبعد الانسانية عن الشعور !!

كنت اخرج الاطفال من اللغافات القدرة ، وقد نال منهم الاهمال حتى أصبحوا لا يزيدون عن أنهم كومة من لحم تدب فيها روح ، وكانت الامهات قد حملنهم أسابيع وشهورا يهرين من مكان الى مكان والخوف يطاردنهم ، حتى عندما آوئهن السفينة كان الخوف لا يزال مستحوذا عليهن فأبين مفارقة اطفالهن لحظة ، ولما وصلن الى رأس التين كن لا يصدقن انهن قد نجون ، فكانت كل امرأة تتلمس طفلها وتضمه الى صدرها لتتأكد من وجوده معها ، وكثيرا ما سلمنى النساء مع اطفالهن بعض المسدسات والخناجر ، ولعلمن كن قد أعددنها للدفاع عن اطفالهن ، فما افطع الايام التى تقضى على المرء أن يقتل نفسا للدفاع عن أخرى ، وقد جنت امرأتان كانت قد مضت عليهما

مدة وهما تتهربان من مكان الى مكان والخوف يمسلا
قليبيهما ، فلما اطمأنتا الى مكان واستراحتا من الهرب
تجسست فى مخيلتهما الحوادث الماضية بشكل أشد
وأروع فطار عقلاهما شعاعا .

لم تكن مساعدة هؤلاء سهلة كما قد يتصور الانسان ،
ولو انهم استطاعوا قراءة قلبى لكان من السهل التغلب
على الصعوبات ، وكانوا يمانون بصعوبات كبيرة فى
ادخال هؤلاء الى الحمام ، وكنت قد عهدت بالحمامات
الى احسن خادمتى ، وهن بولونيات من مدينة «اونبول»
القريبة من الاستانة ، ولهذا كن يجد اللغة التركية ،
ولكن النساء لما علمن انهم غير مسلمات خشين منهن شرا
وأبين الاستسلام اليهن فى نزع الملابس والاستحمام ،
مع انهن كن من الضعف بحيث لا تستطيع احداهن ان
تحرك يدها وكان لابد ان يفتسلن لازالة ما علق بهن من
الأوساخ ، وتغيير ملابسهن البالية القدرة بأخرى نظيفة
لكى يستطعن الراحة ، فذهبت اليهن ، وكن يعرفن انى
هانم أفندى ، ويأتمننى على أطفالهن ، فقلت لهن مهدئة
(الخادمت مسلمات لانهن يؤمن بالله) وبذلك استطاعت
الخادمت مزاوله العمل ، وأما الملابس القديمة فكانت
تحرق على الفور ، وكان العمل كثيرا ومستمر كدولاب
لا يقف ، على انه لم يكن قسمنا هو الوحيد الذى يعمل ،
بل ان اكثر العمل كان على عاتق رئيس الاطباء الدكتور
(كاوتسكى بك) فانه ومن معه كانوا يفحصون كل
واحد من الهاربين فحصا جيدا ، فكان منهم المرضى
والجرحى وبعض النساء كن هاربات بحروى شديدة ، فما
أشد بؤس هؤلاء المساكين الذين ذاقوا كل ويلات الحرب
القاسية .

أما الخديوى فكان يعمل فى قسم الرجال ، وكان يأتى ليرانى بين الحين والحين ، فكان منظرى وأنا أحمل طفلا بين يدى غريبا عليه ، لأنه لم يالف ذلك منى ، وكان قلبه يخفق لرؤية الأطفال على العموم . وأذكر اننا كنا فى رحلة ، فلما وقف القطار الخاص فى إحدى المحطات . هتف مئات من الأطفال .. اصطفوا فى المحطة (أفندى مزجوق يشا) وقد أثر صوت الأطفال على الخديوى لدرجة أنه لم يستطع أن يحدث مستقبليه . نعم أنا أعلم أن لى قلبا رقيقا .. وفى المساء كنا نستقل القطار الى سراى المنتزه بعد أن أدى كل منا عملا مشكورا .

لا يزال العمل مستمرا فى رأس التين سائرا من تلقاء نفسه ، وبدا يزول عن الوجه ذلك الأثر الذى رأيته فى نفوس الهاربين فى اليوم الأول ، وهو الذى محسا الشخصية الفردية والى بين قلوب الجميع فجعل منها كتلة واحدة متضامنة ، ولكنهم ما كادوا يحتسون بالحياة مرة أخرى حتى اختلفت مشاربهم وعاداتهم ، وبدأت العائلات « الراقية » تفصل نفسها عن العائلات « الدنيا » فليت شعرى متى تزول هذه الفوارق ؟ إلا يفكر الإنسان فى التنازل عن تلك الفوارق إلا اذا حلت به المحن وطحنه البؤس ؟ اليس الناس كلهم سواء ؟ أم تراهم لا يشعرون بذلك إلا عندما تمتد اليهم يد الموت ؟ إلا تجمع الأمومة بين كل الأمهات فيحببن جميع الأطفال كما يحببن أطفالهن ؟ أم أصبح الشعور وقفا على من اتصل بنا بالاسم أو بالقرابة ؟ واهما للشعور اذا كانت حدوده « أنا » و « نحن » وإذا كان منتهى ما يصل اليه هو تجزئ

القوة العامة وتحويلها الى ملكية فردية . الا يحمل هذا التجزئ عى عقاب الانسانية بين طبائمه ؟ اليس هو السبب فى تناكر الناس وموقف بعضهم من البعض موقف الغريب ؟ وشعور الفردية هذا بين الناس يجعلهم ينفصلون الواحد عن الآخر . . وهنا تبدأ العداوة .

اذا كانت قيمة ما يفعله المرء لا تظهر الا اذا اختص بها اناس دون آخرين ، فليست هذه الأعمال الا انانية من الانسان وشعورا كاذبا لا يصل أثره الى أبعد مما يصل الانسان نفسه . . الا توجد وسيلة تجرد الانسان من هذه القيود الخيالية غير الخوف أو الموت ؟ ما أغرب مكان فى هذا القصر ؟ ماذا أبتغى فيه ؟ ان المساعدات التى أقوم بها لهؤلاء المساكين ما كنت لأقدر عليها لولا مركزى الخاص ونفوذى وقُدرة المال ، وهذه المؤثرات على الخصوص أريد أن انسأها . . انها تثقل كاهلى لا أريد مركزا ولا نفوذا ، وإنما أريد أن أساعد كل فرد من خالص نفسى ، وأبعث فيه الأمل من أعماق قلبى ، أريد أن أكون للجميع على السواء ، فالأرواح فى أصلها أخوات ، لا أريد أن أسمع شيئا عن الرفيع والوضيع ، ولا أعرف ان هناك أرواحا سعيدة وأخرى شقية . وقد تنقلب الآية فيصبح السعيد شقيا والفقير سعيدا اننى أفهمهم جميعا لأننى أحبهم على السواء ولا أعترف بعظمة غير عظمة المساواة . وأنت الا ترى ان السبل تفرق بنا كثيرا فى هذه النقطة .

لا أظن اننى سررت فى حياتى لبلوغ أمنية أو تحقيق رغبة بمثل سرورى الأمنية اليوم . وذلك لاتصالى بصميم مصدرها ولعلمى بأننى لم أنلها بالرجاء وإنما أستحققتها بخدمة الانسانية . فقد ولدت فتاة وجاءنى

أهلها يسألوننى الاذن بتسميتها باسم « جويدان » اننى اعتبرهم جميعا اطفالى حتى ولو لم يحملوا اسمى .
فياجويدان الصغيرة لئن كانت هديتى اليك ليست الا أمنية ودعاء فانها ان تحققت كمسا أمل فسترافقك السعادة أينما كنت وحينما نزلت .

كان أغلب الهاريين من المسلمين . ولكن كان منهم المسيحيون واليهود أيضا . ولكننى كنت أعمل على اسقاط الفوارق الجنسية والدين حتى لا يظن أحد منهم انه مفضل على غيره ، أو أن له حقوقا أكثر من الآخرين . . ووزعت ماكينات الخياطة فى قسم النساء . فكان يخطن الملابس لأطفالهن أو لرجالهن ودبت فى الجميع الحياة فأخذوا يتحدثون عن آمالهم وأمانيتهم . فمنهم من كان يفكر فى الرحيل لأن لهم اتصالا ببعض الجهات . ومنهم من لم يبق لهم فى الحياة غير أنفسهم . وهؤلاء كانوا يرون البقاء مؤقتا . على أنهم جميعا كانوا يعلمون ان البقاء فى رأس التين ليس له زمن يحدده .

أما الخديوى فكان يكثر الاحتكاك بالرجال ويشاطرهم الشعور . فان طبيعته البسيطة المرحّة كانت تجذب اليه القلوب وتبعث على الوثوق به . حتى أصبح يعرف قصة كل واحد منهم . ورغم انه كان يتناسى مركزه الممتاز فى حديثه معهم . فانى اعتقد ان كثيرا منهم كان ينسى همومه ويرى نفسه سعيدا لأنه يتحدث مع خديوى مصر . فكان يسرنى أن أرى القلوب تحبه .

كنت أنظر من نافذتى فى الحديقة . فرأيت الخديوى يسير مع بعض الرجال وهم يدخلون . ففخيل الى انى لأول مرة أعرف ان الخديوى لا يدخل . ولعل السبب فى ذلك هو أن الاحترام يمنع الناس من التدخين أمامه

حتى ولو سمح لهم بذلك . ولكنه كان حريصا على أن يوزع التبغ والسجائر على الهاربين يوميا . فكان هؤلاء يدخلون في حضرته أعتافا بفضلهم وجميله . وكان لا يرى غضاظة في ذلك . فكان يمازحهم ويضحك معهم ويسحرهم بحديثه في الحديقة .

عدنا الى القاهرة - فاننا لا نمكث في الاسكندرية الا مدة قصيرة أثناء الخريف أو الصيف - مع العلم بأن الفصول الأربعة تكاد تكون لا معنى لها في بلد تشرق فيه الشمس دائما . أما مقامنا في الشتاء فانه في القاهرة . ولم نساfer الى سراى المنتزه هذه المرة الا من أجل الهاربين وقد أصبحوا الآن آمنين يتمتعون بحياة منظمة هادئة بعد أن قدمنا لهم كل ما يمكن من المساعدة الخارجية . أما المساعدة الداخلية فانها عليهم أنفسهم . ففعل أنهم في سراى رأس التين يدخل الطمانينة على نفوسهم ويمحو منها الألم والخوف .

وقد كتب الخديوى أسماء هؤلاء المنكوبين في كشف طويل وأشار امام كل منهم بما تتطلبه حاله من المساعدات بعد البحث والتحري كإيجاد عمل له . أو إعادة ترحيله . حسب الحالة . فأصبح مستقبل كثيرين من الأنفس والأرواح معلقا بهذه الورقة التى تقبض عليها يد الخديوى .

وفى القطار كان الخديوى يأتى الى كثيرا فى صالون الحريم . فكنت أزيح عددا كبيرا من الكتب لكى أفسح له مكانا الى جانبى . وفى المحطات الكبيرة كان الخديوى يقف فى نافذة صالونه ويخفف القطار من سرعته لكى يحيى من وقفوا لاستقباله فانهم كانوا جميعا يفرحون لرؤية أفندينا ولو من نافذة القطار .

وكان الخديوى يعمل مع معيته فى القطار فتعرض عليه الأوراق والاسترحامات ويضع البرنامج لليوم التالى فى عابدين . فان القاهرة كانت مقر الحكم والعمل والتشريقات الرسمية . ووقعت عينى على الشمس وهى تؤذن بالفروب وقد احمرت سبيكتها . فوددت لو ان القطار ضل غايته . حيث نصبح كلانا أشخاصا تحركها الرسميات ويتحكم فيها الوسط وتحيط بنا دائرة محدودة لا نستطيع الخروج منها .

وددت لو ان هذا القطار أخذ يصفر ويتناقص حجمه حتى يصبح عربة واحدة ليس فيها الا انا وانت . لا أحد غيرنا . لا شيء سوانا . حتى ماضى وماضيك قبل ان نتعارف لا أريد ان يكون معنا الا ما أحدثناه نحن بأيدينا .

الى أين تريد الرحيل ؟ ماذا يبتغى هناك ؟ وما عسى ان يكون موقفنا الواحد نحو الآخر انما لن نكون الا شخصين لا يجد أحدهما الآخر الا اذا تلمسه بيده تلمس الأهمى . او تظن غير ذلك ؟

غابت الشمس واختفت اشعتها وسار القطار فى الظلام . واذا بى أسمع صوتك يقول : « فيما تفكرين يا عزيزتى ؟ لقد وصلنا » .

وصلنا ؟!

أرخيت قناعى وخرج الخديوى أولا من القطار وركب عربته البيضاء الى سراى القبة يتبعه رجال المعية . ثم غضت الأبصار ونزلت أنا الى حيث كانت تنتظرني السيارة التى اقلتني الى سراى مسترد .

سرای مسترد

كلما عدت من السفر ووقفت بى السيارة امام سلم السراى ينتابنى شعور غريب . كأنما ستحدث أشياء مفاجأة . ولا أكاد أستقبل الردهة الكبرى ويقع نظرى على ما الفت من الأشياء حتى أشعر بأننى أصبحت فى بيتى وفى منزلى . ولكن شعورى كان يتغير مع كل خطوة أخطوها فى الغرف فكان يخيل الى ان هذه الأشياء تقوم كالعقبة فى سبيل نفسى . فأعانى كثيراً من الشدة فى أزالتها لكى أستطيع التقدم وما أتقدم الا لاستسلم لشعور آخر أغالب نفسى فيه وتغالبنى . فأننى لا أستطيع التنفس فى وسط أهملته يد العناية . كما ان نفسى لا تطمئن الى الحياة فى جو خلقته بنفسى وتجمعنى به أسباب كثيرة من الحوادث والشعور .

فان تعدد الحوادث والمشاهدات يكون جزءاً من الحياة يجمع ما بين الماضى والمستقبل وله على الحاضر أثر لا يمكن محوه أو نسيانه . واصبحت حياتى أشبه شئ بمسافر كلما قطع جزءاً من طريقه ترك عليه قطعة من نفسه ، فهو يلقي النظرة تلو النظرة الى الوراء ليستعرض أجزاء نفسه المبعثرة على عرض الطريق الواسع ويسمع أصواتها تناديه لا لكى يعود اليها ولكن لكى يأخذها معه ويحملها حية من الماضى الى الحاضر الى المستقبل الى حيث يسير .

ليت شعرى - كيف يستطيع المرء أن يبدأ حياة جديدة ؟ ماذا يصنع بحياته الماضية ؟ أم هو لم يعرف الحياة من قبل ؟ هل أشبهت نفسه لوح الصبى يمحو منه ما كتب ؟ أم تراه لا يمحو شيئاً . لأن اللوح لم يجر عليه خط ولم تثبت عليه كتابة ؟

يظهر ان الحياة لا تكتب حروفها الا في نفوس نسجت صحائفها من نسيج يمتص الحروف امتصاصا لا يجعل هناك سبيلا لمحوها . . ولكن ما عسى أن تكون النتيجة وحروف الحياة لا تنتهى بل تتجدد . . فهل يستطيع الانسان ان يحفظ كل هذه الحروف وبجملها على صفحات نفسه الى حيث لا يعلم .

انى فى منزلى اطوف فى حجراته ، فمن ذا الذى يقول ان الاشياء جماد لا حياة فيها ؟ ان الاشياء تحفظ تاريخ الحياة وتجيد اعادة القصص . فكم من حلم جميل استعيد قراءته من بين هذه الوسائد الحريرية ؟

كنا جالسين امام المدفأة ، وكنت أنظر الى نارها المشتعلة ولم يكن ضروريا أن أنظر الى وجهها لأنك كنت بأكملك مائلا فى نفسى . . ثم بدأت الحديث ولكن صوتك كان غريبا على اذنى كأنه صوت لا أعرفه . صوت بعيد عن دائرتنا . . وكان هذا الصوت يقص شيئا عاديا . . رجلا خان زوجته . ثم وجد نفسه مدفوعا الى الاعتراف لزوجته بهذه الخيانة . . فهل يعلم هذا الرجل أن صرحه هدم ؟؟ وهل يشعر حقا بضغط الجريمة على نفسه فيريد أن يخفف عنها بالاعتراف ؟ لم يحدث شيئا ، وظلت النار تشتعل فى المستوقد . واذا بيدك تقبض على يدي . وفى هذه اللحظة عدت أنت كما أعرفه ، فابتسمت ابتسامة لا علاقة لها بأفكارى . ففى نظرك انتهى الموضوع بانتهاء القصص . وأما فى نظرى فقد ابتداء كل شيء الآن . وأنا اذا ابتدأت فلا توجد نهاية .

واستمرت الاشياء تحدثنى . وكان ضوء المصباح يسقط على البيانو .

ماذا دهانى ؟ هل جننت حتى انى اعذب نفسي

باسترجاع أمور أستطيع أن ادفنها في زاوية عميقة ،
فلا يكشف الغطاء عن حقيقتها ؟ .. ولكن .. ما قيمة
هذه أنحياة التى يعمل فيها الانسان الى أسرار غيره .
فيتخذها سلاحا بعد أن يطلبه بالطلاء الذى يهواه ؟ ما هذه
المهزلة النفسية ؟ من هو ذلك العدو الذى أخشاه وأحاول
الاختفاء عن نظره ؟ الا يكون ذلك العدو هو نفسى ؟

كم من ليلة قضيتها باكية لا لشيء .. الا لأننى انكر
على نفسى جزءا منها لا خلاص منه . فكنت أهجر
مضجى وأضغط وجهى الملتهب الى خشب البيانوا الأملس .
وأسمع أوتاره تهمس فى أذنى « حذار » ! أنك تسيرين
فى طريق خطأ .. وأن الأمل الذى تسعين اليه لا ينهض
به انسان بمفرده .

لا أريد أن أرى ولا أن اسمع ولا أن افكر أكثر من ذلك ،
وليت النسيان يكتنف هذه الليلة .. فتحت الباب المؤدى
الى غرفة نومى وقع نظرى على الخاتم فى أصبعى ..
انه خاتم من زفير وعليه اسمك .

كيف استطاعت أن تُنتكر لتحضر الحفلات الرسمية؟

استطعت ان انفذ ارادتي فى السفر لحضور افتتاح
قناطر النيل (فحكت) الطربوش على رأسى جيدا
وجربت الانحناء عدة مرات فلم يقع الطربوش . ولاحظت
انه اذا وقع فلا ضرر من ذلك لأن شعري كان مقصوصا .
ولكن الياقة العالية كانت تضايقنى كثيرا ، وحشوت
اكتاف الرदनجات بالقطن حتى لا يظهر اتساعه وملاّت
(بوز) الجزمة (اللمع) بالورق . ولكثرة عزفى على
البيانو كانت أصابعى تشبه أصابع الرجال .

بالاختصار . . كان شكلى يعجب كل سيدة لها ذوق
سليم . وهذا الاعتقاد جعلنى اشعر بأننى أصبحت رجلا
فعطرت مندىلى وحملت حقيبتى الصغيرة المحتشوية
على ملابسى الرجالي . وذهبت الى المحطة . وبينما كان
الخديوى يحادث الرجال المحيطين به ركب قطاره
المخصوص . وكان طبيعيا فى مثل هذه الخطوة الجريئة
الا تتم بمساعدة خادمه الخاص (فردريك) .

ولما تحرك القطار ورأى الخديوى امامه لم يصدق
عينيه ولم يتمالك نفسه من الدهشة ، فانه لم يتوقع

ان يرى مثل هذا السكرتير الأمين ، وفرح كلانا لهذا الموقف فرحا شديدا . ولكنى كنت أريد التمرن على الوقوف باحترام فكتفت ذراعى . وكلما قال كلمة رقيقة — طبعاً لى أنا وليس للسكرتير — أجبت عليها أولاً بانحناء واحترام . وبعد ذلك أجبت الاجابة الخاصة . ثم قال لى : « لا يجب ان تتكلمى يا عزيزتى » فوافقت على ذلك . فانه خير لى ان يعتقد الناس انى سكرتير أخرس من ان يظنوا انى أحد الأغوات اذا سمعوا صوتى الرقيق . وقد يذهب الناس الى ان شدة الاحترام حبست صوتى . فالانحناء يقوم مقام الجواب وهذا يقوى موقفى وموقفه . ولم يعلم بسرى الا طورنسين باشا والدكتور كاوتسكى بك والخادم فريدريك . وذلك لاحتمال الاحتياج الى مساعداتهم فى بعض المواقف .

ووصلنا فى الصباح الى الأقصر . وكانت مزدانة بالأعلام . مزدحمة بالناس . وصدحت الموسيقى من كل مكان وكانت السفن معدة على النيل للخديوى وحاشيته . وسفينة الدوق أوف كنوت . وسفينة للوزراء . وأشرقت علينا الشمس جديدة . وجرت السفينة فى ماء النيل . ووقف الفلاحون على الشاطئين يحيون الخديوى وهو واقف على ظهر السفينة . لا تفارق الأنظار عينيه . ووقفت الى جانبه أنظر الى النيل . فتحولت نظرى الى شجيرات باسقة من القطن وواد أخضر ذى زرع امتلات سنابله بالحبوب . فعجبت للنيل يجرى هادئاً بين ضفتيه الرمليتين . وهو يحمل هذه القوة العظيمة بين موجاته . فحيث جرى يجرى الخير فى أثره . حتى أصبح روح هذا الوادى .

ورأيت الثيران تدبر السواقي برفع الماء ورى

الأرض لذلك الفلاح الفقير الذى يعيش مع حيوانه فى
كوخ متهدم من الطين . سقفه من قش الأذرة . والنيل
يطعم هذا الفقير وذاك الغنى على السواء . فالفقير يأخذ
منه كوخه . والغنى يبنى القصور وينفق من خيره الذهب
ويتعشق النساء . فلا عجب أن عبده قدماء المصريين
.. فكانوا يرون فيه المانع العاطى .

وسارت السفينة نحو السد الذى سيضمن تنظيم
الرى وتوزيع الغذاء على أرض الشمس الدائمة واشتد
الحر فى بدلة الردنجات . فوددت فك أزراره . ولكن
السكرتير يجب أن يقف فى صمت أمام سيده . فأننى
كنت واقفة الى جانب خديوى مصر . وحاكم نوبيا
والسودان وكردفان ودارفور ، ومن أجله نصبت الاعلام
والزينات . واليه تتطلع انظار الجمهور المزدحم علمه
الشواطىء . وفى أرضه يجرى ذلك النيل العظيم .
فأنحيت على يده وقبلتها . فنظر الى نظرة اندهاش
أجبتة عليها همسا « أفندى مزجوق يشا » ففهم ما أريد .
وطن الآخرون أن السكرتير الجديد يشكر مولاه على نعمة
أولاه أياها .

ليتنى كنت رجلا يا أفندينا لكى أستطيع خدمتك
وخدمة بلادك .

وفى المساء رست البواخر وظهرت الاضواء على
الشاطىء . فنزل الخديوى وحاشيته الى البر حيث
سبقتة الوزارة الى السرادق الكبير الذى أقيم للتشريفه .
واستقبل الخديوى رجال الدين وكبار الموظفين
والباشوات والنبكات والمشايخ . وجلس اليهم
يحدثهم . وكانوا يجيبون على أسئلته بأصوات خافتة
كأنها آتية من مدى بعيد . ولما غادرنا السرادق كانت

صفحة النيل قد امتلات بالقوارب الصغيرة على صفحات الماء الهادى . ولا يزال أهالى الصعيد متمسكين بخرافة قديمة وهى أنه اذا وجد طفل على ضفاف النيل بالليل أخذه أبوه فى سفينة شراعية وصرخ بأعلى صوته فى سكون الليل وهدوئه قائلا : « ولد اليوم طفل فما عسى أن يكون اسمه » ويصل صوته الى الأغوار القريبة . وقد يكون بعض الناس مستيقظا فى تلك الساعة . فيرد عليه باسم يكره . ويكون الفضل فى تسمية المولود بهذا الاسم راجعا الى الليل والنيل وصوت المجهول .

وقد تساءل الكثيرون عنى . ولكن لم يجرؤ أحد أن يجاهر بسؤاله بالقرب من الخديوى . ورائتى ابنة الدوق أوف كنوت من ظهر المركب فسالت طورنسين باشا عن ذلك التركى الجميل . فأدخل هذا على نفسى الزهو شأن كل رجل يعرف أنه أعجب سيدة من الطبقات العالية . ولم أجد مانعا من النظر الى الباخرة الأخرى . فالسكرتير انسان على كل حال . والأميرات كن جميلات .

واستقبل الخديوى أحد وزرائه على الباخرة وطال بينهما الحديث وكنت لا أزال واقفة أمام الخديوى واضعة يدى على بطنى . وفجأة نظر الى الخديوى وقال : « ألم يتعب من حب بعد ؟ » فجمدت فى مكائى وأصبت بالعمى والصمم والبكم دفعة واحدة . لانى رايت الاستنكار الشديد قد ظهر على وجه الوزير . وأصبحت سمعة الخديوى موقوفة على ما يدور على وجهى . ولكنى استجمعت كل ارادتى وحكمت نفسى فلم يظهر على وجهى شيء . وعاد الخديوى الى حديثه وقد بقى سؤاله

بغير جواب . كأنما وجهه الى الفضاء . وما زلت آمل فى ان يكون الوزير ثقيلا السمع .

وفى ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ وضع الخديوى الحجر الختامى فى بناء سد النيل . وكان قد مضى عليه ثمانية عشر عاما فى الحكم . ولم يكن بين الخلائق المجتمعة وجه ظهر عليه الحب والاخلاص للنيل وواديه مثل وجهه الخديوى . فانه لم يكن فى موقفه الخديوى الحاكم . وانما كان فلاحا يحب الارض ويجيد العناية بها . حتى أصبح من أشهر مزارعى القطر المصرى . وتنتج أرضه احسن المحاصيل . وكثيرا ما كان يشتري أرضا يظنها الناس جرداء لا خير فيها . فلا تمضى سنوات قليلة حتى تصبح هذه الأرض القاحلة أرضا طيبة تنبت الفاكهة والزرع . فكان الخديوى أكثر الموجودين اتصالا بذلك السد الذى جاء لافتتاحه . والذى نقش عليه اسم الخديوى من ذهب .

لماذا تنكرت بملابس ممرضة ؟

وكيف كان الخديوى السابق يقود يخت « المحروسة » بنفسه ؟

وصل الى تلغراف جفرى من الخديوى يطلب الى فيه ان اعود الى القاهرة متنكرة . فجلست أفكر . وبعد ان دخلت السيجارة العاشرة كنت قد انتهيت من وضع الخطة — وليس هناك شيء أعجز عن تنفيذه — وبعد ساعة كنت عند البارونة « آيور » رئيسة جمعية الصليب الأحمر . ورجوتها ان تعطينى جـوازاً كممرضة من

ممرضات الصليب الأحمر . وإن تسمح لمرضة حقيقية أن تصحبني في رحلتي .

وبالرغم من دهشة البارونة لطلبي هذا شعرت أن هناك جوا من التفاهم يسود بيني وبينها ، والعقل والتفكير يتغلبان على أعقد الأمور التي قد تبدو مستحيلة لأول وهلة . ثم كلمنا الأستاذ « فرشق » ورجوانه في أن يحضر إلينا . ثم جلسنا ثلاثتنا نتشاور ونتبادل الآراء . ولما عدت إلى الفندق كانت الخياطة تعد لي ملابس ممرضة .

واشرتت الرئيسة تذكرتي السفر . كما أنها حجرت مكانى في الباخرة واستطاعت هى والأستاذ أن يحصلوا لى على جواز سفر باسم « الأخت صوفيا » ولكن ملابس الممرضات كانت متعبة جدا . فالقماش الخشن كان يحك جلدى فيؤلمنى . فضلا عن ذلك لا بد أن البس شعرا مستعارا لأن الممرضات لا يتبعن « الموضة » فى قص الشعر . ولما كنت غير متعودة على الشعر الطويل فانى كنت أجهل آداب استعمال « الباروك » والصفيرة المستعارة .

وأعدت خادمتى « هارملين » حوائجى من أحذية بلا كعب ، وملابس من (الدبلان) وشرابات قطنية ، فلم أطق النظر إلى هذه (التشكيلة) المخيفة .. ثم نشبت بينى وبينها معركة شديدة من أجل الكولونيا والروائح العطرية . وملابس النوم الحريرية .. وانتهت المعركة بانتصار باهر لى . فأخذت هذه الأشياء معى ، بعد أن وعدت وعدا مؤكدا بأن استعمل الحيلة والحذر فى فتح حقيبتي ، ثم أرسل تلفراف جفرى إلى الخديوى بيوم الوصول ، وانى لأحسد خادمتى على سفرها بحقائبي

الكثيرة المملوءة بالملابس النفيسة ، بينما أسافر أنا كمرضة فقيرة « غلبانة » .

وقالت لى الرئيسة . لا ترفعى رأسك يا صاحبة السمو . واخفضى من جناحك قليلا . فلما فعلت قالت : هذا حسن . لقد أصبحت الآن أختا صالحة . ثم قدمت لى رفيقتى فى السفر .

لم يكن يعلم بتنقلى أحد غير الرئيسة والاستاذ والاخت الزميلة . حتى الخياطة كانت تظن ان الملابس لمرضة حقيقية . ثم حملت كل منا حقيبتها بيدها وذهبتا الى المحطة . ومعنا الام الرئيسة واتخذنا مقاعدنا فى الدرجة الثانية . ولما أذن القطار بالرحيل همست الرئيسة فى أذنى بانه لا مناص من ان أنحنى على يدها فأقبلها — وان كان يؤلمها ذلك — أو على الأقل اتظاهر بانى أقبلها لسكى لا ألفت الأنظار . على انه فى الواقع لم يكن يؤلمنى أن أقبل يد تلك الام الصالحة ، فان تكن أختى قد قبلتها من خضوع وذلة . فقد قبلتها انا عن احترام واكبار ، ثم تحرك القطار يقل اختين ممرضتين الى كريسنا ، ومنها الى الاسكندرية لتقوما بتمريض سيدة محسنة عجوز .

وفى عربة القطار بدأت (المصيبة) فانى — بكل بساطة — وبدافع العادة اخرجت علبة السجائر فنظرت الى أختى بدعور وظهرت عليها دلائل الاغماء ونظرت الى السيجارة كما لو كانت قبلة وتوسلت الى الا ادخن . ولم يكن هناك أثقل على نفسى من اجابة هذا النداء — واتباع العقل قد يكون ثقيلًا فى بعض الاحيان — ثم تنبعت فجأة الى اننا لم نحجز محال فى عربة النوم . ولكن الأخت (هلدجارد) أفهمتني ان هذا لا يتفق مع تعاليم الممرضات ،

فلا يسمح لهن بالسفر فى عربات النوم الا اذا كان معهن مريض . فتمت ليلتى فى مكائى . وكان راسى اذا مال اختل نظام وضع الضفيرة المستعارة ومالت « الباروكة » وأصبح منظرى مضحكا - الله !! - متى تنتهى هذه الليلة ؟

وفى صباح اليوم التالى وصلنا الى تريستا ، فأردت ان أبرهن لزميلتى على اننى احسن الرحيل فأخذتها الى احسن فندق فى المدينة وانتقيت احسن الغرف فائرت بذلك الشكوك حول شخصنا ووظيفتنا ، وبعد الحمام طلبت افطارا فاخرا . وأقبلت على السجائير بشهية عظيمة ، لامعوض ما فائت فى القطار، وكان الجرسون الذى يقوم على خدمتنا يتسم لنا ابتسامة غريبة وقحة . ولكنى لم أكن أعبا بذلك .

وفى الباخرة خصصت لنا كابينة بسريرين فى الدرجة الثانية - الحمد لله - أخيرا أصبحنا بمفردنا .

كانت الرحلة جميلة . وكان طبيب الباخرة يجلس معنا فى الأكل . وسألنا عن وجهة سفرنا . فتركت الإجابة لأختى « التمرنة » لأن صوتها كان عديم اللهجة خافتا تشتم منه رائحة المستشفيات . وجلست الى جانبى سيدة قصت على تاريخ زواجها المحزن . واختتمت قصتها قائلة (انت تفهمين أيتها الأخت) .

نعم ، ان هذه الأخت تفهم كل شئ ولكن لا يعنيهها سماع هذه التفاصيل التى تخص طبيب النساء دون غيره .

كنت أطيل المكث فى « الكابينة » بقدر المستطاع اذ كنت أستطيع التمتع بلذة التدخين وأتخلص من الشعر المستعار .

ما أسمع هذا الشعر الغريب الجامد - كأنما الشعر القصير طعن في كفاءة الممرضة - وكنت آخذ الحمام كل صباح فأسر جدا لوجود ماء الكولونيا معي .

وفي برنديزي وقف كل الركاب على ظهر الباخرة للتفتيش على الجوازات . فاضطربت الأخت هلدجارد . فوقف كل منا يحمل جوازه بيده . وقد تلتطف الناس معنا بنوع خاص ، لأننا ممرضات نخدم الإنسانية . ثم أعلن أن الجوازات صحيحة . وكان هذا هو كل ما رأيناه من الحرب التركية البلقارية .

وفي الليل سمعنا طرقا على بابنا . فقد مرض أحد الركاب ويحتاج الى تمريض ، ولما كان هذا ليس من اختصاصي فقد قامت الأخت هلدجارد لتأدية وظيفتها ، أما أنا فاني أدت نفسي على الجانب الآخر لاستمر في النوم . وقبل أن انام رأيت الضفيرة المستعارة تهتز في مكانها المعلقة فيه كأنها الثعبان .

وفي اليوم التالي كان الخديوى موضوع الحديث على مائدة الغذاء . وكان الحديث في مبدئه عاما ، ثم أخذ يتدرج من الكلام عن الخديوى الحاكم الى الكلام عن الخديوى الرجل ، فظهر الانتباه على وجهي لدرجة أن الأخت هلدجارد كاد يغمى عليها خوف الافتضاح . فأخذت تغمزني بحداثتها الثقيل من تحت الطاولة . وكان الطبيب ضد الخديوى . فاحمر وجهي واضطربت عيناى ، ولكني تماكنت نفسي وسكت .

وقص الطبيب ان الخديوى سافر مرة الى القسطنطينية على باخرة رومانية . وكان الجو عاصفا والبحر رديئا . فجزع الخديوى وخاف خوفا شديدا . فكانوا يهدثونه ما بين آونة وأخرى .

يا الكذاب ... !!

أما العاصفة فانها حقيقية . وقد كنت معه فى هذه الرحلة . ولكنى لم أر شيئا من ذلك الخسوف الذى يتحدث عنه الكذاب .

لقد كان الخديوى أكثر مرانا على البحر من احسن قبطان . وكم من عاصفة اجتازها بيخته المحروسة . وقد تولى القيادة بنفسه . وظل طول الليل ساهرا يعطى الأوامر لرجاله وسط ضباب كثيف . وموج كالجبال ، وكان الخديوى اذا عب عباب البحر واصطخب موجه لا يفكر فى نفسه ولا فى حياته ، وانما يفكر فى المسؤولية التى يحملها عن الآخرين الذين يقومون بخدمته .

بعد ذلك يأتى هذا الرجل ويخترع عليه الأقاصيص !! فكننت أحدث نفسى قائلا :

— انتظر ... سوف ارد لك كل هذا بمكيال اوفى ، سوف ألقى عليك درسا لن تنساه ، سوف أجعلك طول حياتك تكره قصص العواصف والأمواج ، سوف أجعلك تذكر الممرضات ذكرا لا يعتربه النسيان . ثم أعقبت هذا — فى سرى طبعا — ببعض الشتائم العربية ، لأن اللغة العربية واسعة المحصول فى هذا الباب .

سألت حالة المريض الذى تمرضه هلدجارد ، ولم يعد ينقصنا الا الحجز فى الكورنتينة لكى تتم المسرات ، وكانت زميلتى على دراية بالحالات العصبية ، فكانت تكثر من تدليك جسمى بماء الكولونيا — الذى كسبته فى موقعة الفندق فى فينا — لأنها كانت تخشى أن يعرف امرى ونحن على ظهر الباخرة .

الحمد لله ، تحسنت صحة المريض ووصلنا الى

الاسكندرية ، وكان أول من نادى بالباخرة ممرضتان من ممرضات الصليب الأحمر ، ثم اقلتنا العربة بسرعة الى مكان الحلاق « واشتروا » فسألتنى زوجته : ماذا تريدان ايها الاخت ؟ ولكن صوتى جعلها تتذكر ان لها عينيّن تؤديان وظيفة النظر - فذهبنا الى مسكنها واحضرت الملابس اللازمة وبعد ساعة كان اكسبريس القاهرة يقل سيدتين تركيتين يغطى وجهيهما قناع أسود - وانتهى عهد التمريض والممرضات - وما أسرع تحول النساء من حالة الى حالة . فقد اختفت امارات الاستكانة من وجه زميلتى وعادت سيدة مهذبة لها ذراية بالاعداد والآداب وكانت دائما تعقب كل كلمة من كلماتها بكلمة : « يا صاحبة السمو » .

ولما وصلنا الى القاهرة أمرت « العريجي » بان يذهب الى سراى عابدين فاطاع مدهوشا . ولما أكد اصل حتى أسرع فى مماشى القصر يهرول أمامى خادم لينيه « الخادم الخاص فريدريك » الى حضورى . ولم يكذ هذا يرانى حتى أسرع لأخبار الخديوى الذى جاء مسرعا للقائى . وحولت الاخت حينها عنا .

وكان الخديوى قد طلب قائمة بأسماء جميع ركاب الباخرة . ولكنه لم يستطع ان يتبين الاسم أو الشكل الذى تنكرت به . وبالرغم من ذلك أرسل الدكتور كاوتسكى بك لانتظار الباخرة التى حضرت عليها فلم يعرفنى . وهذا دليل على أن تنكرى كان بالفساد حد الاتفاق .

وبالطبع اخبرت الخديوى بخبر الطبيب . فتوجه طورنسين باشا الى ادارة شركة اللويد النمسية وانكر الطبيب أولا وقوع ذلك منه . فانه كان يعرف كل

بجلسائه على المائدة - لكنه نسي الممرضات ولما أخبر
بأن هناك ممرضة على استعداد لمواجهة أدرك الحقيقة
وبلغنى انه كان يشك فعلا فى شخصيتى لكثرة الحمامات
التي كنت أخذها ولرائحة الكولونيا التي كنت أتركها
فى الحمام .

أما الممرضة الحقيقية فانها بعد أن أمضت عدة أسابيع
فى ضيافتى فى قصر مسترد عزمت على الرحيل وجاءت
تودعنى فى لباس الممرضات فسررتى جدا ان أرى هذا
اللباس الخشن على جسدها هى ، وليس على جسدى
أنا .

لماذا كانت تفضل الإقامة في الأستانة؟

على الإقامة في قصور القاهرة بين مظاهر الهناء
والنعيم؟

وبماذا كانت تشعر أثناء رحلاتها في القطار والفنادق؟؟
القسطنطينية في شهر رمضان

سنمضي صيف هذا العام بأكمله في الأستانة بعد أن
قررنا عدم القيام بالرحلة الأوربية السنوية ولم يسئني
هذا القرار لأنني أحب الأستانة حبا جما . وأشعر بأنني
مربطة بهذا العمل برباط نفساني شديد .

كنا بالأستانة بعيدين عن رسميات القصور في مصر ،
وإذا استقبل الخديوى أحدا هنا فإن هذا الاستقبال يكون
خاليا من الصيغة الرسمية . بحيث يمكن اعتباره زيارة
عادية بسيطة .

هنا كنت أشعر حقا بأنني متزوجة . وما أجمل هذا
الشعور أحيانا !! فإنه يكسب الأحلام لونا جميلا
ثابتا .

هنا كان يملكني اليقين بأنك زوجي واني زوجتك .
واعتقد اننا في هذا الجو . كنا نتبدل أناسا آخرين .
حتى في شعورنا الواحد قبل الآخر .

واعتقد ان حيسالى كانت تتقلب بين اطوار ثلاثة مختلفة . واحد منها فى القاهرة . مقر الحكم . والثانى اثناء الرحلات . والثالث فى الاستانة .

اما فى القاهرة فلم اكن ار فيك الا الخديوى فقط . حتى اثناء زيارتك لى فى سراى مسترد . كنت لا أستطيع ان أنظر اليك نظرتى الى شىء خاص بى . ويكفى ان ارى العربة التى تنتظرك فى الحديقة لأعلم ان زيارتك مرضية محدودة . وليس ادل على هذا من انه توجد فى سراى مسترد غرف لا نعرفها ولن تطاها قدماءك .

كانت سراى مسترد ملكا لاحد الاغوات . فلمـ مات عادت الى الاملاك الخديوية ولم يسكنها احد قبلى . فلما خصصت اسكنى ادخلت تغييرا كبيرا على بنائها واثائها وتركيبها . وكونتها تكوينا جديدا يتفق مع ذوقى الخاص . فان تكن هذه السراى قد أصبحت بيتى . فانها لم تكن يوما من الايام بيتا لنا .

واما فى الرحلات — مهما طالت مدتها — فاننا كنا نلتقى قليلا ولمدة قصيرة . اذ كنا دائما نعيش فى مكانين منعزلين — وان كانا متقاربين — سواء فى الباخرة او فى القطار او فى الفندق .

اما فى القسطنطينية فحياتنا تختلف عن كل ما سبق . فقد قامت سراى شويكلى تحت اعيننا وعنايتنا معا منذ كانت رسما على الورق . فدرسنا تفاصيلها قبل ان يقوم بنائها . واشترينا بايدينا كل ما يلزم لها من اقمشة واثاث . كذلك الاشجار والورود والمزروعات كلها غرست وفقا لارادتنا ومهدت الطرق حسب ما ارتأيناه . فالسراى كلها قامت حسب رغباتنا . ومن اجلنا . لا من اجلك وحدك ولا من اجلى وحدى .

وكذلك الحال فى كشك « تشقتليك » حيث تمضى رمضان هذا العام . وقد أمرت أنت بعمل الطريق الذى يؤدى ما بين شويكلى وتشقتليك ورأينا بأعيننا يهد حتى تم .

اذن فبيتنا الحقيقى « بيت كلينا » لا يوجد الا فى الاستانة .

قل أين نتناول الطعام اليوم ؟ افى شويكلى على شاطئ البحر فى « سلاملك » الحديقة أم فى السراى فى الشرفة الكبيرة ؟

بدأت الأنوار تضىء الواحد بعد الآخر . فكانت كأعين تنشر ضياءها على صفحة السفور . وأخذت السفن تراقص أمواجه تحت ضوء القمر .

ما أكثر ما سألتنى « فيم تفكرين ؟ » ليتنى أستطيع أن أقول ذلك انه ليس تفكيرا . ولا اتصال له بالواقع . وإنما هو شعور يرفرف بجناحيه ويطير فى واد متسع ليس له حدود ولا يعرف من مخبئه الا شعاع أو خيال . أو فى محاولة لاختفاء حوادث تعاقبت عليها الأيام حتى كادت تفقد لون الحقيقة . ولم يعد يذكرها أحد الا كاشاعة لا تبرزها على حقيقتها . ولكن كلون باهت وصدى ضعيف لنغمة قديمة . متى تحين الساعة التى أرى فيها حقيقة اتيوم تمتد أمام بصرى كواد ذى زرع نضج ثمره حتى لا يخيل الى أن هذه الحقيقة بجملتها أصبحت ملكا للماضى .

« ما أغربك !! .. » طالما سمعت منك هذه الجملة أيضا .

انى لاكتب الآن فى كشك تشقتليك . ثم أرسل بصرى من بين أشجار العنب الى الطريق الذى ستأتى

منه سيارتك - وكل مرة أرى فيها تلك السيارة تقطع الطريق الى القصر يخالجنى شك فى أن هذه السيارة آمنة الى وانها ستقف أمام الكشك الذى انتظر فيه - فاضطر أمام هذا الى تذكرة نفسى بانك انت الجالس فى هذه السيارة - ومن القريب ان نفسى ترى فى كل شئ أمرا عجبا !! حتى ولو كان من انشط الحوادث - وقد تقع أمور يمر عليها غيرى من الكرام . بل قد لا يحسون بها . أما أنا فانى أرى فيها سرا خفيا . فأوقل فى الحدس والتخمين . غير واجدة اسبابا ثابتا ارتكز عليه .

وأغلب ظنى ان كثرة البحث والتفكير هى التى ولدت فى نفسى حب الاستقصاء . فغيرى لا يعنون بالبحث ومنهم من عميت بصائرهم فتوهموا أنهم قد وقفوا على الحقائق !!

الله !! . ما هذا الجوع الذى أشعر به ؟

حقا !! انه رمضان !! وهانذا أسمع الحراس يثامسون مع بعضهم البعض ويقولون انه باق نصف ساعة .

ومعنى هذا ان الشمس ستغرب بعد نصف ساعة - أى ان المعدة ستسكن بعد هذا الوقت أيضا - فوضعت اذ ذاك الى جانبى سيجارة كبيرة . فانها ستكون أول ما أبدا به .

ها هى السيارة تسرع فى طريق القصر . وفى هذه المرة أجد نفسى واثقة من أنك فيها . ولست أدري لماذا يخفق قلبى بهذه الشدة ؟ أمن الفسرح ؟ أم الجوع ؟

ثم ابدا اليوم بالسيجارة لأن السائق كان أسرع من المعتاد والاكل فى رمضان يختلف فى سائر الايام - فتعدد الالوان وكثرة الاوانى الصغيرة وفكرة ان الاكل الان لا الان الانسان جائع فقط . بل لان الاكل غير مسموح به الا الى مطلع الفجر - كل هذه الأشياء غير مالوفة فى الاصل . وكذلك النوم يختلف فى رمضان عنه فى الايام العادية . فالانسان ينام فى رمضان بسرعة ويظل نائما حتى موعد الطعام .

جلست الى مائدة صغيرة لتتناول السحور على ضوء الشموع . ثم شربت كاسا من الماء وتلوته بسيجارة . ثم امسكنا لتستقبل صيام يوم جديد .

لماذا حاول السلطان عبد الحميد

منع زوجة الخديوى السابق من السفر الى أوروبا ؟ وكيف كانت زوجة الخديوى تقضى شهر رمضان ؟؟

جاء اليوم الثانى من رمضان بزيارة غير متوقعة . وعادة يحاول الانسان فى رمضان قتل الوقت لكي يمر سراما لا لأنه يشعر بالجوع . فان تحديد مواعيد الاكل لتأخيرها عن مواعيدها كفيل بذلك . ولكن لأن النوم وحده لا يشبع البطون - ثم ان كثرة المحظورات . واشتغال الفكر . بأن هذا محرم وهذا ممنوع . يجعل الانسان يحس بفراغ ويشعر بقوة هذه المحرمات - فالممنوع متبوع .

كانت الاثاثات فى الردهة والصالون مغطاة بأغطية حريرية تسيل ألوانها كالماء - أظن اننى ظمأى ولا أريد الاعتراف بذلك . وما هى فائدة اعترافى بالحقيقة . واقرارى بالظما . ما دامت الشمس لا تزال فى كبس

السماء ؟ وكنت دائما أحدث تغييرا فى الأغطية وتبدلا
فى الوسائد لكى أقتل نهار الصيام الطويل . وأثناء
جلوسى فان الأقمشة والوسائد الجديدة سمعت صوتا
ينادى بلهفة .

هانم أفندى .. هانم أفندى .

لابد أن يكون هناك امر مهم . والا لما اجترا هذا
الصوت على الارتفاع فى سكون الحريم — وفعلنا كان
هناك امر مهم — فقد وقف الخديوى يتحدث مع أمير
تركى فى الحديقة ويريه تنسيقها . ففهمت أن الخديوى
انما أراد بذلك أن يمنحنا الوقت الكافى للانسحاب .
فحملنا الأقمشة والوسائد وأسرعنا الى الدور الثانى .
ولما دخل الخديوى وضيغه الى الصالون لم يكن فيه اثر
— ولو بسيط — يدل على انه كانت هناك نساء فى الصالون
منذ لحظة .

وكان الأمير قد خرج فى نزهة مع الخديوى . وفجأة
أبدى رغبته فى زيارة الكشك غير عارف بأن الحريم
يسكن فى الكشك أيضا — فقد كان يظن أن الحريم
موجود فى سراى شيكلى . ولم يجد الخديوى بدا من
اجابة رغبة الأمير فان العادة كانت تحرم ذكر الحريم
فى الحديث . فيتخطاه الانسان بالسكوت . فليت
شعرى لم هذا ؟ الآن قيمتنا ثمينة أم لأنه ليست لنا
قيمة ؟؟

وشعر السلطان عبد الحميد — بصفته ظل الله على
الأرض — بأنه مكلف بأن يفهم الخديوى بأن سفرى معه
الى أوروبا امر لا يليق اطلاقا فأخذ الباديشاه يتكلم
— على وجه العموم — بأنه لا يليق بالمرأة المسلمة أن
تتبع العادات الاوروبية . ويستحسن ألا تسافر المرأة

ما أجمل أن تكون المرأة زوجة لخدموى مصر !!
وبخاصة عندما يقول : « افعلى ما تريدن يا عزيزتى » .

يبدو النهار فى رمضان طويلا جدا ، وذلك لانه ينقصه ما اعتاده الانسان فى فترات الطعام والتدخين والتلهى .
ويوم رمضان له لون خاص نظرا لنزول الانسان فيه عن عاداته التى اعتادها طول حياته ، فاليوم الاعتيادى ليس الا وقتا مقسما بين هذا وذاك ، ولكن يوم رمضان يوم مستقل ووحدة ثابتة تأخذ مجراها من مطلع الشمس الى مغربها ، والانسان عادة يحكم على وقته ويتصرف فيه فيقسمه حسب سبل معيشته ، أما يوم رمضان فانه يحكم نفسه بنفسه ، ولست أرى لنفسى مكانا فيه ، وليس لى الا أن أنظر إليه واتبع مجراها حتى تغيب الشمس ، وعندها فقط تستطيع عاداتى أن تطالب بحياتها ، ولكنها حياة تبدو كذكرى أكثر منها حياة ، فان الأشياء التى اعتادها الانسان أن يفعلها نهارا تحت أشعة الشمس تفقد رواءها فى الظلام ، فمثلا القهوة باللبن اذا شربت مساء فانه - رغم لذة طعمها - تنقصها بهجة الصباح ، وكذلك الأحلام التى يحملها الانسان بعد غداء منتصف الليل تكون خالية من الرقة - فانه أكثر من أن تكون حلما - وكل هذه الأشياء تحدث « ضيقا » فى المزاج . فليس غريبا أن يكثر الطلاق فى رمضان عند من لا يضبطون أنفسهم ، فان الجوع والعطش وعدم التدخين تجعل الواحد منهم سريع الغضب ، قليل الصبر . عديم التفكير . وكل هذا يقع على رأس المرأة المسكينة التى لا تستطيع أن تساعد بشئ فى هذا الموقف .

أما أنا فكنت أرى فى رمضان مجهرا أرى به الناس

على حقيقتهم ، لا تخفيهم العادات وملابس الوقت ،
فهذه الايضاحات الداخلية لا شأن لها بالفـسـواق
الظاهرية ، وكلما أمنت فيها النظر ازدادت يقينا بوحدة
الفرد .

ماذا يريد رمضان مني ؟ هل يريد أن ينهني ؟ هل
يريد أن يثبت لي - بالجوع - أن تصميم حياتي
ينقصه الأساس ؟ واني لشدة تعلقى بالأمل يخيل الى
أحيانا أن آمالي قد تحققت ، وهى لم تفادر بعد
قرارة نفسى !! وهل أصبح اليوم الممل والمعدة الخالية
حاملين قوين يستطيعان رفع الفشاوة عن العين فتصبح
مبصرة ؟ أغلب ظنى ان رمضان هذا سيسلبنى عقلى !!

أيام الصيف طويلة تصبح الشمس فيها عدادا للساعات
ليس الا ، وبين الفترة والفترة يطالب « كيف » الدخان
بحقوقه ويضبط على العصب المتأثر بالتدخين فأسمع ل
هى رأسى صوتا أحد من صوت الطيور .

ليس فى نفسى استعداد للتجرد ، ولا أصلح لأن اكون
من المتصوفات ، وأشعر جيدا أن حالتي بائسة ، مع اننى
كنت فى غنى عن كل هذا ، ومن حسن حظى ينظر من وراء
كتفى فيقرأ ما أكتب ، ولو ان احد الجنود الواقفين
أمام الكشك أطلع على ما أكتبه لاحتقرنى بكل تأكيد ،
ولكنه - والحمد لله - فى الخارج وانا فى الداخل ،
قهل يعلم عنى شيئا ؟ واذا رأى طرف غطاء رأسى وقف
« زنهـار » وادى التحية .

يالله !! ما أخون هذه الحياة .

وليس مزاج الخديوى اليوم على ما يرام ، فقد عنف
(المكوجية) لأنهم يبطئون فى الكى ، وأمل الا يكون
قد طرد (المكوجى) الذى يجيد كى (البلاسيه) ولست

أدري كيف يستطيع خديوي أن يهتم بالفسيل ؟ وعادة
إذا احتجنا إلى شيء أخبرناه به فيحدد هو بنفسه الوقت
والسيارة والسائق لحضار هذا الشيء .

انه لمن السخف أن تمر كل صغيرة على الخديوي ،
حتى اننا في بعض الأحيان نخشى أن نخبره بتأخر بعض
الطلبات خوفا من ان يفضب على المكلفين بأدائها فيخصم
من مرتباتهم أو يطردهم ، ولست أدري كيف يتسع
وقته وفكره للاشتغال بهذه الأشياء حتى أصبح خدمة
غير قادرين على العمل برأى مستقل ، وهذه الظاهرة
قوية في نفسه ولا يمكن تحويله عنها ، فقد استخدمت
مديرة للمنزل في سراي شويلكي ، ولكني لم أبلغ بهذا
أكثر من انني أضفت انسانا جديدا الى من يسألونه
الرأى ، ولكن لا عجب في ذلك فالسلطان عبد الحميد
نفسه يهتم في سرايه بكل شيء ، حتى الفسيل القديم
يحظى باهتمام الخليفة والأواني التي يشرب منها يختمها
نفسه بخاتمه .

كيف نشأ العداء بين الخديوى واللورد كرومر؟

جلس الخديوى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، ولم تكن الظروف حسنة ، فقد خلف أبوه توفيق ياشا ، وكان حاكما ضعيفا ، من بعده جده اسماعيل ياشا ، وكان حاكما صرفا كبير المطامع .

ولما تولى العرش لم يجد فى بداية حكمه تعظيدا كافيا ، فان اللورد كرومر لم يكلف نفسه مناء الاتصال بنفسية ذلك الخديوى الصغير ، فان السياسة الحجرية لا تعرف معنى العواطف والشعور ، فكان اللورد كرومر لا ينظر الى الخديوى الا كرئيس عنيد الراى ، وريب له غير محبوب منه ، لانه كان مضطرا لمخاطبته بلقب « يا صاحب السمو » وهو يعلم ان الخديوى ليس له من الأمر الا هذا اللقب ، على حين انه كان يشعر بانه هو الحاكم الحقيقى وكان هذا كافيا لأن ينظر اللورد الى الخديوى كدمية يجب عليها الطاعة ، ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوى منذ الصغر ، وكان قوى العزم عنيد الراى ، وفوق ذلك كان محبا للكفاح ، ولعل

هذا الخلق تولد فى نفسه عندما شعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه والتي كان فى امكانه الاضطلاع بها دون أن يضطر الى الوقوف موقف الدفاع أمام هذا العدو القوى الذى كان فى امكانه ان يذله كحاكم وانسان .

وليس من المعقول ان خديويا - ولو كان نصف وطنى فقط - يتقبل صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوه معادية ، وكل نظرة اليه تذكره بضعف بلاده وهزيمة أسلافه ، فكان اصعب وقت مر على الخديوى هو الوقت الذى امتد فيه ظل كرومر فى مصر ، فانه كان يعامل الخديوى باعتبار انه فى الثامنة عشرة غير عابىء بحدته ولا احتجاجة .

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوى فقد كان - غورست - رجلا ليذا لطيفا على الرغم من السياسة . ولو ان غورست كان فى مصر عندما جلس عباس الثانى على العرش لكان ذلك أصلح لتطور أخلاق الخديوى ، فابى اتهم اللورد كرومر بأنه السبب فى بعض مخبث الخديوى .

كان غورست هو الشخص الوحيد الذى اخلص له الخديوى فى الود وتعلق به تعلقا شديدا مقرونا - كحاكم وكرجل - وعندما كنا فى لندن وبلغ الخديوى ان المرض اشتد على السير غورست وهو فى بيته الريفى ، أسرع الى عيادته فى الحال ، ولما عاد كان فى حالة حزن شديده لم اعهدا عليه من قبل ، ثم قال « لقد تحدثنا ... ثم صلينا .. » فكان للجميع فى الصلاة معنى ساميا ، فقد تجلت فيها الرابطة الانسانية بين الرجلين . تلك الرابطة التى ألقت بين المسلم والمسيحى ، بين السياسى الانجليزى والحاكم المصرى ، فجعلته ينسى كل شيء

ويشترك مع صديقه فى صلاته وهو على سرير الموت ،
كان الخديوى يحب بلاده حبا اكيدا ، ويتعلق بارضى
مصر تعلقا شديدا ، فكان يرمى أرضه بصبر وجلد ،
وهى تنمو عاما بعد عام تحت اشرافه الشخصى ، فقد
كان من دأبه الا يعتمد على اقوال غيره ولا يصدق الا
ما تراه عيناه ، وليس قطر المنتزه الا نتيجة مجهودات
سنين متتالية أحالت أرض البحر الرملية الى حدائق
غناء تنبت الزهر والفاكهة . وتغلب الخديوى على كل
الصعوبات القائمة وأنشأ للقصر مرفأ جميلا عميقا له
رصيف من الحجر الصلد ، وكثيرا ما كنا نركب العربية
الصغيرة للزهوة فى حديقة القصر وعلى شاطئ البحر
فنستقبلنا الزهور بأريجها الطيب والوانها الزاهية ، فان
الطبيعة أسرفت هنا فى جمال الألوان وطيب الأريج ،
فانما اتفق البر والبحر على أن يكونا فنا من
الجمال .

وكانت آثار الخديوى تظهر على كل ما تعهده يده ،
سواء فى القصور أو التفتيش أو المزارع .
فتفتيش ادفينا وتفتيش الاسماعيلية ، كلها كانت اراضى
جرداء فأصبحت مشمرة تدر الخير عليه وعلى الفلاحين
القاطنين فى تلك النواحي .

وكان الخديوى يزهر بنمو ثروته ، وقد أخذ عليه
البعض انه يستغل مركزه لمصلحته الخاصة وانه كان
تاجرا ، على أن الخديوى لم يكن ثروته فى الصناديق ،
أو يودعها البنوك كشأن امراء الشرق بل كان ينزل بثروته
الى السوق فتستفيد من ورائه أنفس كثيرة .

ومن المدهش ان ما يحتسب لسائر التجار كحسنتات
يحتسب للخديوى كسيئات ، والواقع ان الخديوى كان

تأججوا أكثر من التجار ، يزن الأشياء بمقدار ما تدره من الأرباح ، فكانت ميناة المنتزه مؤجرة الى أحد الصيادين الذى كان يبيعنا ما يلزمنا من « الجنبرى » وما يلزم للسراى من الفسكهة كنا نأخذها من متعهد آخر ، واثناء سفرنا كانت كل الزهور والرياحين تباع ، وكل ذلك من أجل الكسب ، والكسب متبوع بالاقتصاد والتوفير فى الغالب ، ولكن الاقتصاد مذموم فى الملوك بقدر ما هو ممدوح فى الأفراد ، وكان فى الملابس اذا تقطعت بطائنها لا ترمى ولا تهمل ، بل تعمل لها بطانة جديدة .

ولما كان الخديوى لا يكسب الا مبالغ جسيمة ولا ينفق القرش الا فى موضعه فانه كان لا يعلم كيف اننى اشتري زهورا بخمسة فرنكات وحجته فى ذلك ان الزهور مصيرها الى الدبول ، ومع ذلك فان زهرة واحدة كانت تهدى اليه تجعله يدفع فاتورة حساب كبيرة على الفور ، فقد كانت من عادة صاحبة مخزن الموضة الذى أتردد عليه فى باريس ان تهدى الى كل منا زهرة جميلة بمجرد وصولنا ، وفى هذه الاثناء تعرض على أحدث أزياء القبعات لانتقى منها على الأقل « دسطة » لاستعملها أثناء رحلتى فى أوروبا ، وكان الخديوى لا ينظر كثيرا الى المجموع الكلى ، على حين انه كان يدقق فى المفردات ، فمثلا لا يهتم أن يدفع مائة ألف فرنك ثمن ملابس لى ، ولكنه اذا قرأ فى الفاتورة أن أحد الفساتين يساوى ٨٧٥ فرنكا فانه يرى ان هذه الفرناكات زيادة عن اللزوم ، ولهذا كان الموردون يضعون الائمان دائما بالأرقام الصغيرة فلا يرى الخديوى فيها شيئا ، وكان الماء لا يتسرب من بين أصابعه فكان يقول لى « اننى

أعرف كيف أحافظ على المال » ولعل في هذا كثيرا من الحقيقة ، فأننى على عكسه لا أستطيع منع الماء من التسرب من بين أصابعى .

كان الخديوى فى بداية كل عام يضع ميزانية لمشروعاته المعمارية فى القاهرة ، فانه كان ينشئ فى كل عام عمارة ، حتى أصبح يملك احياء بأكملها ، وكنا فى المساء نخرج متنكرين للإشراف على ما تم من البناء وكان الخديوى يصعد (السقاييل) ويتنقل فوقها بخفة مدهشة ، وكان اذا مر على عمارة أخرى أدرك عيوبها على الفور ، وكانت ملاحظاته دائما فى محلها .

وعندما انشا سكة حديد مريوط اختلف المهندسون على تصميم أحد الكبارى ، وأخيرا اقروا جميعا التصميم الذى وضعه الخديوى بنفسه ، وقد عد الناس اقدامه على انشاء هذا الخط ضربا من الخرق ولكنه كان أبعد نظرا منهم واحصف رايا .

وقد كسب الخديوى قلوب العربان بانشاء هذا الخط ، فكانوا لا يتحدثون الا باعتبار انها سكتهم الحديدية .

ولم لا ؟؟ أليست تقوم على (أرضهم) لا

كان عباس حلمى أول خديوى خضع له العربان بلا قيد ولا شرط ولما ذهبنا لافتتاح خط مريوط وتناولنا القهوة عند شيخ العربان كان يبدو على الرجل ما يشعر بأنه يرى نفسه قريبا للخديوى وندا له رغم ما كان يبدية نحو شخص الخديوى من الاحترام .

ولم يحدث ان أحدا من العربان اخل بثقة الخديوى فيه إلا مرة واحدة ، اذ كنا نقوم برحلة فى الصحراء ،

كانت الخيام اللازمة للمبيت ترسل قبلنا بيوم لكي تكون معدة عند وصولنا ، وكنا - أنا والخديوى - نركب سيارة ومعنا سائقان ويتقدمنا دليل عربى على جمل .

وسارت الرحلة ببطء واستقبلتنا الصحراء بأسرارها وجلالها وأصبح الطريق لا يزيد الا عن بحر من الرمال مترامى الأطراف ويهيب الرأى للعين ان كل شئ على مقربة منها .

ومالت الشمس ولم نصل الى خيامنا ، فاقفنا السيارة وتكلم الخديوى مع الاعرابى ، ولكن الأخير اكد انه لم يضل الطريق ، ولم يظهر على وجهه الاسمر اثر ما ، فتنبعناه من جديد ثم حل الظلام واذا بالدليل والدابة يختفيان فجأة كأنما ابتلعتهما الأرض او طواهما ظلام الليل ، وتابعنا رحلتنا على ضوء النجوم . فيا ترى هل تعطلت غريزة الاعرابى لأنه يقود آلة ولا يتسود حيوانا ، أم انه فقد قياد جملة الذى رأى فى السيارة منافسا له فى الصحراء ، فكره صحبتها ؟

ومضت ساعتان ونحن لا نزال فى الطريق لا ندرى انسير الى الامام أو الى الخلف . ثم تولى الخديوى سياقة السيارة بنفسه ، وجلست الى جانبه فشعرت بالطمانينة ، وجعلنا نهتدى بالنجوم وأخيرا رأينا أضواء وسمعنا أصواتا ، واذا بنا أمام فصيلة من الجند تهيأت للبحث عن الخديوى ، ثم وصلنا الى الخيام .

ومع اننا لم نقف فعلا فى الصحراء - فانه ليس من السهل أن يترك الخديوى يضل فى الصحراء ولكننا تذوقنا مقدما طعم الآلام الصحراء ولم يكذبختفى الدليل حتى اتجهت أنظارنا جميعا الى وعاء المساء الذى له القول

الفصل فى الحياة أو الموت بين هذه الرمال .

وعندما أذكر هذه الحادثة الآن أشعر بجفاف فى
حلقى ، وكأنه جفاف رمضان ، فقد تنقلت بفكرى بين
غرف القصور ورمال الصحراء والشمس لا تزال بالية
لم تفرب بعد .

ومن يدرى بماذا أشعر عندما أعيد القراءة فيما أكتبه
الآن فى « تشنتلك » ؟ لا شك أنى سأشعر بالجوع
والعطش ، ولكن ربما شعرت بالشوق أيضا .

لماذا كانت الاميرة تتخفى أن تكون رهباً صديقاً للخديوى وليست زوجة له!

كانت كل الحيوانات التى تهذى الى الخديوى ترسل دائما الى سراى مسترد . وفى مرة أهداه شريف مكة كلبين عربيين من كلاب الصيد فى الصحراء وأرسل معهما بدويا لكى يعطى التعليمات اللازمة عن أكلهما وشرابهما وهو بلح بنوائه وشرابهما اللبن ، وقد أخذتهما معى فى السيارة من القبة الى مسترد ، فكنت طول الطريق جالسة بين خطرين وكنت قد أمرت باخلاء غرفة فى مسترد لأجل الكلبين . ولكنهم نسوا أن يخرجوا منها دولا با عاليا كان فيها ، فكان الكلبان لا يفترقان عن هذا الدولاب فى الأيام الأولى ، ولكنهما بالتدريج أصبحا أليفين على انهما لم ينزلا عن عادة الصحراء فكانا لا يدوقان اللحم ، وإذا قدم لهما بلح خال من النوى فانهما لا يقربانه ، وكانتا يتراجعان أمام منظر الماء ولم نستطع أبدا إغراءهما على شربه .

ولما عاد الخديوى من الحج أحضر لى ببغاء اشتراها من أحد الحجاج ، وكان اسمها « الحاجة فاطمة » وكانت آية فى الجمال ، وقد اختلط الأبيض والأحمر فى حرير

ريشها ، ونظرا لحياتها انبدوية وسكنى الخيام تعودت الحاجة فاطمة على الحذر واليقظة والصياح عند أقل حركة ولما ملأت سراى القبة صياحا احضرتها الى سراى مسترد ، حيث افردت لها غرفة مستقلة ، وكانت حينما تطير فى الصالة يضع الخدم فوق رؤوسهم مظلات حمراء عند اختراق الصالة، وذلك لأنه كان من عادة الحاجة فاطمة أن تقع على رأس الانسان وتحاول أن تكشف بمنقارها عما تحت الجمجمة ، وكانت هى الطائر الوحيد الذى لم يخضع لارادة الخديوى ، بينما كانت جميع الحيوانات تخضع للخديوى بمجرد النظر ، كانت هذه البقعة تثار وتصيح عند رؤيته ، ولعل السبب فى ذلك راجع الى لون طربوشه الأحمر الفاتح ولما كان طربوش السلطان أغمق لونا وكان عظمته يحجب الطيور ، فان الحاجة فاطمة سافرت على ظهر المحروسة لتكمل مجموعة السلطان عبد الحميد وتملا يلدز بصياحها .

وفى الواقع كان خضوع الحيوانات للخديوى مدهشا، حتى كنت استعمل مختلف الطرق واستغرق الوقت الطويل لكى أروض الحيوان الذى كان الخديوى يخضعه بنظراته فقط ، فالجواد الذى يستعصى ركوبه كان يسلس قياده للخديوى ، وكان الكلب « أورسى » اذا رأى سجادة الصلاة مفروشة فانه يسير بخضوع حولها فى قدس كبير ، وكان الخديوى يقول لى « ان الكلاب تضحك منك يا عزيزتى ... » فلم اكن اتألم لهذه الكلمة فانه لا يسيئنى ان تضحك منى الحيوانات ، ومع ذلك فان « أورسى » عندما لدغته عقرب فى موضع حساس من جسمه ، وقطع الطبيب الامل فى شفائه جاءوا به الى

مسترد فما زالت به حتى شفى ، ولست أعتقد أنه كان
بضحك منى فى هذه المرة .

لم يكن لعباس الثانى أصدقاء ببعض الكلمة . 'فراق'
الصبا أصبحوا باورانا أو تشرقية فقط ، أما صداقة
الماضى فلا ذكر لها ، وعلى العموم فإن التاج يفصل
بين الملوك وبين الماضى ، والحكام يعيشون دائما فى
دائرة منعزلة . فلا هم بقادريين على التوكل عن مستواهم
ولا أفراد الشعب بقادريين على النظر اليهم إلا باعتبار
أنهم حكام . ومنذ عرفت عباس الثانى وددت أن أكون
رجلا لكى أصح صدقا نخلص له باعتبار صدقا
لا سيذا ، بيد اننى لو كنت رجلا لما استطعت التعرف
به .

انى لارى من نافذة الكشك شخصا يلتقط الزهور
بعطف وحنان بنمان عن عاطفة رقيقة ، وهذا الرجل
طويل القامة عريض النكبين قوى العضلات يدل انطباق
شفته الشديد على عزيمة حديدية .

هذا الرجل هو فخر الدين ، وهو منذ سنين الخادم
الامين للخديوى ، الذى يضحي بحياته ألف مرة فى
سبيل سيده . ولهذا الرجل قصة غريبة ، فقد كان
حديث الناس فى قوله ، وكان معروفا بأنه أقوى رجل
فى هذه المدينة ، فكان الكل يخشون بأسه ويتجنبون
الاحتكاك به ، على انه الى جانب ذلك كان مشهورا
بالصدق والوفاء بأوعد ، فكانت كلمة واحدة منه تقوم
مقام ألف قسم من غيره ، وكان يعيش مع زوجته وأولاده
من قطعة أرض يزرعها بنفسه ، وكان يجيد الرماية

لدرجة أنه يستطيع أن يضرب ظالماً في الجو وأن يعين موضع الإصابة .

وحدث أن فخر الدين هذا كان جالساً في قهوة يعرف فيها موسيقيان - رجلٌ وفتاة - وكانت الفتاة قد أعجبت فخر الدين ، والأمير ما أهان الموسيقي زميلته الفتاة ، فلم يرق هذا في عين فخر الدين فتقدم إلى الرجل وقال له : « أنك تستحق الموت من أجل هذه الإهانة ، ولكني سأمنحك فرصة تحاول فيها خلاص نفسك ، فان استطعت أن تعرف على ظهر الكمنجة لحنا تسمعه اذناني فأنت ناج ، والا فالموت لك » .

ولم يستطع أحد أن يتدخل بين الرجلين ، ووقف فخر الدين والمسدس في يده ، وكان طبيعيًا أن الخشب لا يعطى لحنا ، وفي الحال خرجت الرصاصة من المسدس فأصابت ما بين عيني الرجل ، وذهب فخر الدين إلى بيته وجاء وراءه البوليس يريد القبض عليه ، ولكنه أبى أن يخرج مقبوضاً عليه ، وقال لرجال البوليس : « اذهبوا وساحضروا بنفسى .. » .

ولما كان رجال البوليس يعرفون أن الرجل لا يكذب فأنهم تركوه ، وفعلاً ذهب الرجل بنفسه إلى قسم البوليس ، فلما فتحوا له باب السجن نظر إليهم بسخرية وقال : « لقد وعدتكم بأن أسلم نفسي وها قد فعلت ، ولكني أقسم لكم أنني لن أمكث طويلاً في هذا السجن » .

وظن القوم أن فخر الدين سيبحث بيمينه لأول مرة ، ولكن لم يحن المساء حتى كان فخر الدين يقترب من بخت المحروسة في قارب صغير ، فوثق به الخدوي لأول نظرة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فخر الدين خادماً

أمينا وتابعا مخلصا وحارسا خاصا للخديوى ، وكلما رست المحروسة فى ميناء قولة كانت عائلة فخر الدين تأتى اليه على ظهر اليخت وتقيم معه بأمر الخديوى حتى يوم الرحيل ، وفى هذه الأثناء يقف البوليس على الشاطئ فى انتظار الرجل .

وفى هذا العام كنا قد قررنا عدم الذهاب الى قولة ، فمن يدري لماذا كان هذا الرجل يقطف الزهور بهذا الحنان ؟

الا يمكن أن يكون مشتاقا لزوجته وأولاده ؟ لئن كان شوق هذا الرجل يساوى قوته ، فما كان أشد بأسه ! ليست عندى صورة واحدة تروقنى عن نفسى رغم كثرة الصور التى عندى فانها جميعا تظهر وجهى كوجه الأطفال . واظن ذلك راجعا الى أن المصورين لا يجيدون التصوير لأنهم يتخذونه مهنة لا فنا ، ولعل أجمل صورة كان يمكن أن تمثلنى على حقيقتى هى التى حاول أحد الأجانب التقاطها فتنبه اليه البوليس وصادر آلة الكوداك التى كانت معه . وانى لا ازال اذكر هذا الأجنبى الى الآن ، ولا أنسى صورته ، فقد كان نحىلا بارز عظام الوجه ، ساطع العينين جدا . مفرطا فى الطول ولولا غرابة منظره هذا لما تنبهت اليه ولا لاحظت انه يحاول التقاط صورى .

كان ذلك أثناء حفلة المحمل فى ساحة القلعة ، حيث ازدحمت الجماهير من كل الأجناس واصطفت الجنود فى الساحة وخصص مكان لنساء الوزراء والهيئات السياسية يفصله عن الجماهير كردون العساكر ، ولما تكامل عقد الجمع جاء الخديوى فى عربة تجرها أربعة من الجياد الصافيات ، ووقف على المكان المخصص له

ومن حوله الوزراء ورجال الدين ومشايخ الطمسرق
ثم جاء الجمل الذى يحمل كسوة الكعبة الشريفة يقوده
أحد المشايخ ، فلما حاذى الخديوى سلمه الشيخ
طرف الكسوة قبلها ووضعها على جبهته ثم أخذ بزمام
الجمل وسلمه الى أمير الحج .

وفى هذه اللحظة أزاحت النساء نقابهن وأطلن من
العربات وكانت الموسيقى تصدح والنقود توزع على
الجماهير ، فشعرت بنظر ذلك الأجنبى متجها الى ، وقد
اقترب من المكان المحجوز وتخطى الكردون وكان فى لباس
الضباط الانجليز . وبعد أن التقط الصورة قفل راجعا
ولكن أحد الضباط المصريين تنبه فأخذ منه آلة
الكوداك .

ويظهر أن هذه الحادثة لم تفت عين الخديوى ، فانى
لم أكد أصل الى السراى حتى رايت آلة الكوداك على
المكتب فجعلت أمنى نفسى بصورة جميلة ، ولكن يا لضيعة
الامل ، لقد كانت صورة مشوهة لا تفترق عن أية صورة
عادية لامرأة رفعت نقابها ، فكانت لا تساوى ما لاقاه
الضابط من التوبيخ على فعلته وفوق ذلك ضياع الآلة
الفوتوغرافية منه ، وعندما أعود الى القاهرة سوف
أطلب أحد المصورين الى سراى مسترد لأخذ صورة
تروقنى وربما فضلت أن تؤخذ صورتى وأنا أعزف على
البيانو .

زيارات الخديوى لأوروبا

كان الخديوى سريع الحركة لا يكل العمل ولا يمله ، وكثيرا ما كان العمل يمنعه من تناول الطعام فى مواعيده ، وكان فى أوروبا يميل الى الاماكن المزدحمة بالناس ، ولعل ذلك ناشئ من حياة العزلة التى يحياها فى مصر ، حيث لا يخرج الا فى حرسه ، ويقف كـردون العساكر بينه وبين الجمهور .

وكنا قبل البدء فى الرحلة نضع برنامجا دقيقا عن البلدان التى سنزورها ومدة الاقامة فيها والاعمال التى تقوم بها ، ولكن هذا البرنامج كان لا ينفذ الا على الورق ، وكانت الحقيقة دائما تخالف التصميم ، وكانت الأعمال تزيد بكثير على المقرر ، وكانت باريس ميدان الحركة الدائمة فلا تكاد تمضى بضعة أيام على وجودنا فيها حتى تزدحم الغرف بالمشتريات التى كنا ننتقيها بأنفسنا ، فكنا طول النهار ننتقل من متجر الى متجر لا نستريح الا لتناول الطعام ، فاذا حان المساء وعدنا متعبين الى الفندق وجدنا الصالون مزدحما بالمنتظرين من زوار وموردين بفواتير الحساب ورجال المعية بالمكاثبات ، فكان ينهى كل هذه الأمور بسرعة شديدة

ثم يرتدى بدلة السهرة ونذهب الى بعض الملاهي حيث كان يسر سرور الاطفال ، وبعد ذلك ننتقل الى ملهى « فورا » وهو اكبر ملاهى باريس واكثرها ازدهاما ، فكان الخديوى يتأبط ذراعى ثم تندفع فى تيار الازدحام ، وكنا نقف عند كل لعبة حتى يلتصق الفستان بجسمى من شدة العرق ولكى يجف العرق كنت أقف عند لبعه البيضاء العائمة حيث أخسر بضع مئات من الفرنكات .

وحدث مرة اننا تشاحنا تشاحن الاطفال وسط الملهى ، وذلك ان الجهد كان قد نال منا وأصبحت قدمائى غير قادرتين على حملى وتصيب العرق من جسمى ، وكانت السيارة تنتظرنا فى الخارج ، ولكنى لم أستطع قطع المسافة اليها ، فكان على الخديوى أن يذهب ويحضر السيارة فلما عاد وجدنى راكبة فى « المرجيحة » وقد أعجبنى الهواء البارد الناشئ من دوران « المرجيحة » فجلست فيها لعدة اشواط ولم يكن معى نفوذ اطلاقا ، فكان الخديوى يدفع اجرة الاشواط وهو حائق ، وأخيرا ركبنا السيارة ونحن غاضبان ، ولكننا لم نكد نصل الى الفندق حتى كان السرور قد عاد الينا .

وكان الخديوى يحب زيارة الاسواق والمعارض ودراسة الآلات وخصوصا القاطرات وكان يسوق القطار بمهارة فائقة ، وعندما زرنا لندن كان فى انتظارنا فى ووفر بعض المهندسين الانجليز ، وكانوا يعلمون ان الخديوى يسوق قطاره بنفسه ، ولهذا دعوه الى الاشتراك معهم فساق القطار من ووفر الى لندن ، وبالرغم من انه كان يلبس معطفا ونظارة فانه لم يسلم من سواد الفحم ، فلما نزل فى محطة لندن كان منظره موضع دهشة واستغراب من جميع مستقبليه .

ولم تكن حياتنا فى المصائف بأهدأ منها فى باريس فأنها وان كانت تخلو من حركة المشتريات وكثره أنسهرات الا انها حافلة بتعاليم الاستشفاء وأوامر الاطباء وكان الخديوى يستشفى غالبا فى « ديتور » بالقسرب من جنيف ، وقد كان ذهاب الخديوى الى هذا المصيف سببا فى شهرته ، فكان يتوافد عليه الناس للاستشفاء ولرؤية الخديوى وكنت ارى كثيرا من المصريين ممن لا يستطيعون مقابلة الخديوى فى مصر يحومون حول « الفيلا » التى نسكنها .

وكان الخديوى ينفذ أوامر الاطباء بدقة تخلصا من الشحم الذى كان قد بدا يظهر على جسمه ، وبعد الانتهاء من الاستشفاء هنا كنا نزور عدة مصايف أخرى ، وحدث فى « اكس ليبان » انى - بعد العشاء - اردت الدخول الى صالات اللعب ، وكان الخديوى لا يلعب أبدا ، لأنه كان يفض المال المكسوب بلا تعب ، كما يكره أن يخسر المال بلا مبرر .

وفى صالة اللعب اتجهت كل الأنظار نحوى لا لأن حظى كان عاليا فى اللعب ، بل لأن مجوهراتى وملابسى اخذت بالابصار . واحمر وجه الخديوى وبدت عليه «العصبية» ولست ادرى سببا لذلك . فانه لم يكن من المعقول ان أقامر بجواهرى أو فستائى . واستقر رأى الخديوى على أن اعود الى الفندق فأنزع الحلى وأغير الملابس ، ولم يجد فى الاجتماع شيئا ، وعدت الى الفندق . ولما رجعت الى الصالة فى زى بسيط لم يلتفت الى أحد وضاعت بذلك بهجة الليلة .

العلاقات الخاصة بين الخديوي وأمرأة العائلة المالكة

وفي فيشي رأينا أرملى اسماعيل باشا جالستين فى
شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما دخان
وتستمعان الى نغمات الموسيقى .

كان لاسماعيل باشا أربع زوجات . وعلى عكس
المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحنةا بينهن
ولا بغضاء ، وقد ألف بينهن جبهن لرجل واحد . . هو
اسماعيل .

كان اسماعيل قوى الشخصية ، شديد العزم .
فاستطاع بذلك أن يجعل من أربع « ضرائر » أربع
صديقات . بل استطاع أكثر من هذا فضم اليهن صديقة
خامسة ، وهى امرأة تدله اسماعيل فى حبها .

كان اسماعيل اذا احب لم يترك لمحـب بعده مجالا .
واذا أهـدى أفـدق حتى أفـرق ، واذا أراد البناء فانه
يهدم حيا بأكمله ليـشيد عليه ما يريد ويستعمل ١٩٢٢ .
الأيـدى فى البناء يعملون على ضوء الشمس نهـارا وتـ
لهم المشاعل ليلا . وعلى هذا المنوال قامت سراى الجز
التي بناها خصيصا للإمبراطورة أوجيني لتكون لها
أثناء زيارتها لمصر . ولو استطاع لاحال مصر كلها
روضة غناء تخـطر فيها هذه الملكة الجميلة .

ولما أبدت الامبراطورة رغبتها فى الطواف بالقاهرة على
ظهر حمار رافقها الخديوى فى هذا الطواف ، ولما
رجعنا من النزهة كان حريم اسماعيل على استعداد
لاستقبال الامبراطورة ولم تشعر احداهن بغيرة أو
حسد .

وإثناء حكم عباس الثانى ، بعد موت اسماعيل باشا
وتوفيق باشا . كانت هناك امرأة كهلة فى ملابس
سوداء تزور مصر سنويا وتبدأ مقامها فى القاهرة
بزيارة أرامل اسماعيل .

هذه المرأة الكهلة كانت « أوجينى » امبراطورة فرنسا
السابقة .

وقد احتفظت أرامل اسماعيل بعاداتهن حتى فى أوروبا،
فكن دائما مقنعات ويأخذن الجوارى والأغوات معهن ،
فاذا ركن عربة جلس الاغا دائما الى جانب السائق .

وكان اسماعيل باشا يحب حفيده عباس حلمى حبا
شديدا ويعطف عليه العطف كله ، ويوجد فى قصر القبة
دولاب مقفل يحتوى على الأسلحة والهدايا التى يأخذها
عباس من جده . ولما فتح الخديوى عباس هذا الدولاب
وأرأى نفائس محتوياته أعطاني عليه كبريت ذهبية قال
انها كانت هدية من الامبراطورة أوجينى الى جده .
ولا تزال هذه العلبة أمامي الآن . وعليها « مونجرام »
ذلك الحاكم الكبير الذى كان يعرف معنى الحب .

ربما أسفت على أن رمضان ليس الا ثلاثين يوما ،
وذلك لاني تمسودت فيه الجلوس الى مكتبى وتدوين
مذكراتى . وهذا مالا أستطيعه فى مسترد فهناك البيانو
يفرئنى بالعزف عليه ، ثم أننى هنا أشعر بالحرية أكثر
من هناك ولا أخشى العيون على ما اكتب .

زوجة الخديوى السابق

لو كنت باشا ! ..

لو كنت باشا لتركت جميع الجوارى فى قصرى
عذارى حتى تنتهى حياتهن التعيسة ، ولا افهم مطلقا
كيف أن رجلا يملك قليلا من حسن الاختيار ورقصة
الدوق يستطيع الاعتداء على هذه المخلوقات الدليلة
المسكينة ، وإذا فرضنا أن الشهوة الجسمانية المجردة
لا ينقصها كثير من الشوق ، فإن الشخص المحبوب
يجب أن يفضل على آخر لا يرضى من الانسنان إلا
الحواس فقط . وإذا فرضنا أن المرأة المحبوبة أرادت
أن تكون ذات سلطان على عواطفها ، فلا أقل من أنها
تجاذب الرجل عاطفة حبه . وحسبه هذا حتى لا يشعر
باختلاف درجة العواطف اذ نبالغ عادة فى تقدير
عواطفنا الذاتية وفى التمتع بها ولو بدت لنا من طريق
غير مباشر كما هى الحال فى الحب الذى يرد إلينا ،
ولكن العواطف يسهل فيها الخداع والتمويه . أما
الحاجيات المادية فلا — ولو كنت باشا لاتبعت ذوق
أسلافى ولما رضيت الاستمتاع بأشباه النساء التى
يتوارثن الأقرباء بعضهم عن بعض عن واللاتى ينظر إليهن
كمحتاج جامد لا حياة فيه .

ليست شهواتى من المسائل التافهة حتى اعمل على تسكينها بأساليب سبقنى اليها غيرى . ويكاد يملئها على املاء ولو كان هذا الغير من أهلى وأقرب الناس الى ، كذلك يستحيل على ان أرضى بأن ينشأ نسلى وتشب ذريتى بين احضان ساقطها الى الصدق ، فان الفرس القوى يجب ان يزرع فى ارض حرة .

لا أستطيع ان افهم كيف تنازل سلاطين آل عثمان جميعهم عن الحرص على صفاء دمائهم واختاروا غير الراشدين امهات لأولياء عهودهم وفلذات اكبادهم ، فليست هناك سلالة اختلطت بالدماء العربية مثل العثمانيين ، اذ امهات سلاطينهم جميعا من الشركسيات أو الكرديات أو الروميات أو البلساريات أو الأرمنييات دون التركيات . وفى مصر يكثر انتخاب الزوجات من الجوارى ، فان المطالب التى تطلبها الجارية ورغباتها فى الغالب تافهة قليلة اذ انها بطبيعتها جبلت على الرضا . فهى ترضع لأمر سيدها ، ولو لم تكن حرية المرأة من المسائل الطبيعية المألوفة لديهم فقد كانوا يقدرون المرأة الحرة قدرها ، وكان كل باشا يعرف جيدا ان المرأة المولودة من أبوين نبيلين لا تعد نفسها مساوية له . ولا يسمح له بالنظر اليها نظره الى الجارية ، ولذلك انصرفت رغبة رجال الطبقة الارستقراطية للاقتران بالجوارى .

وبينما يمتاز حريم السلاطين فى الآستانة بما ورثته عن بيزنطة من مظاهر الابهة والمظمة ، فان الحريم المصرى الذى ينتمى الى اصل تركى لا يظهر عليه شيء من مجد الفراغة .

وكثيرا ما أفكر فيما عسى أن يحدث لو ان الرجال

عرفوا ما تعرفه المرأة عن بنات جنسها ۞

لا شك اننا لم تكن نرى للحريم اثرا ، اذ يعرف الرجل انه دائما مخدوع وانه وحده تقع عليه المسؤولية في فقر عاطفته وشعوره دون ان يحصل على شيء من الشهوات المادية يعادل هذا الفقر بل هو قد خسر الملذات كلها لان الشهوة الجسمانية تحتاج ايضا الى العناية والقيمة .

انها تتطلب ضحايا كثيرة لتستطيع ان تحتفظ ببقائها اذ تعيش من الرغبات التي تتمناها والامال التي تحوم حولها ، فهي تستعين بكل ما تصادفه من حرارة ، وما يلقاها من شرر متطاير ، تتلقف الانفسام والالوان والروائح وتنغمس في قرارات القلوب والارواح . وتبحث في نواحيها حتى تجد شوقا هائما تقدم له نارها وقودا ، كل ذلك ونبضات القلب اشد ما تكون يقظة وانتباها وبقاء ، واذا ما جمعت هذه العناصر المختلفة الالوان والاشكال نشرتها كما ينشر رداء ارجواني بهيج اللون وتقدمت به هدية ومنتعة الى من ينال الفوز والحظوة لديها ، ولو كنت باشا ما رضيت غير هذه الشهوة ، ولكن هذا النوع من الحسية المليئة بالحياة النضرة ، لا سبيل لتمويهه في محيط الحريم الخائني ، ومن المدهش ان التي خلقت لتكون متعة أصبحت وسيلة للقضاء على مزايا المرأة التي لا تستطيع ان تستعد بغير تنميتها .

ان منع المرأة من الاختلاط والسهر عليها بل وتقييدها ايضا لا يحط من كرامتها ولا يقضي على حرمتها ، لان الحرص والغيرة التي يظهرها الرجل في ذلك تثبت لها حبه ، لقد تغفل الفساد في الحريم الشرقي من جميع النواحي ، وهو في وسط لا يمكن أن يساعد على تربيته

الأطفال لما يعيش فيه من جراثيم ، أما الحب فقد مسخه
الجواري واتخذن منه آلة يستخدمونها لتحقيق مطامعهن ،
بينما أصبحت الأمومة واسطة لوقاية النفس من شر
الضرائر .

ربما لا استعيد قراءة هذه المذكرات بعد الآن ، فانى
بطبعى لا أقرأ الشئ مرتين حتى خطابات الخديوى التى
كان يرسلها الى لا أعيد قراءتها ، وقد وصل الى فى
أحد الأيام خطاب خشن من الخديوى ، وكان هو فى
سراى عابدين وكنت أنا فى سراى مسترد انهباً للذهاب
الى عابدين لتناول الفداء معه وكان السبب فى ارسال
هذا الخطاب الخشن هو انه بلفه — خطأ كالعادة طبعاً —
انى دعوت بعض السيدات ولكنى لم أكن قد نفذت هذا
العزم بعد ، وكانت نتيجة هذا الخطاب ان حفلة الشاي
القيت .

وانقى لا أزال أذكر نظرتك بطرف عينك الى منفضة
السجائر لتعرف ماذا كنت أدخن فى رمضان ولكنى أعلم
انه ان لم يكن لى وأزع من ضميمى فانى لا أخشاك
وأجاهر بالتدخين امامك .

لقد فرقت بيننا الأيام الآن ، ومشى بيننا الدهر ،
ولكنى على يقين من ان روحينا ما زالتا على اتصال فانك
تشغل جزءاً من نفسى كما أشغل جزءاً من نفسك يحيا
بذكراى ، فاذا مت أنا فسيموت معى من نفسك ذلك
الجزء الذى كنت أشغله .

منشأ الحريم وتطوره

كلمة (حريم) التركية مصدرها عربى ، والفعل منها (حرم) ومعناه الممنوع غير الجائز كما أن فيه معنى القداسة ، فالكعبة حرم ومكان مقدس لا يجوز انتهاك حرمة ، والذي يلجأ الى الكعبة يصبح آمناً فلا يجوز قتله ولا مطاردته ، وفى موسم الحج لا يجوز قتل أى كائن حتى فى الدائرة الحرام .

على انه لا توجد كلمة أسىء استعمالها بقدر ما أسىء استعمال كلمة (حريم) بعد أن أطلقت على القسم المخصص لسكن النساء فى البيوت واصبح النساء فيه سجينات يقوم على حراستهن أغوات لا يصدعون الا بأوامر أسيادهم الذين له مطلق التصرف فى هذا السرب من السجينات ويدعى هؤلاء الأسياد انهم يحافظون على النساء بهذه الصورة ويمنعون عنهم يد ألفريب ، ولكن الواقع هو ان المرأة لم تكن فى حياتها أضيع منها وهى بين جدران الحريم حيث تمتن كرامتها وتضيع حقوقها التى نص عليها الدين الإسلامى ، فقد كانت النساء فى عهد النبى (صلعم) متساويات فى الحقوق مع الرجال يفشين المجالس ويحضرن المجتمعات ويشتركن معهم فى الصلاة ، ولم تكن الصلاة فى ذلك الوقت على

ناعم الأبسطة وفاخر السجاجيد ، وانما كانت على الرمل والتراب وذلك لأن نعومة الأبسطة قد تجعل الانسان ينصرف عن خشوعه فى الصلاة ، ونص الحديث على تحريم الذهب والحريز على الرجال ، ولكن علماء الدين فى العهد الأخير أغمضوا عيونهم عن هذا الحديث وراحوا يلبسون الحريز الوانا وبتحلون بالذهب جهارا .

ولم يأمر النبى (صاعم) بالفصل بين الرجال والنساء الا عندما جاءه وفد من النساء يشكو من اثره الرجال وجلسهم فى الصفوف الامامية فى مجلس النبى بحيث كان يتعذر على النساء السؤال والمناقشة فأمر النبى بأن يكون للنساء مجلس خاص فى يومى الاثنين والثلاثاء يشرح لهن فيه ما صعب عليهن ادراكه ومناقشته فى كل مسألة لكى يكن فى ايمانهن على هدى ، والدين الاسلامى قائم على العقل والادراك ، فهو لم يعرض شيئا لا تقبله العقول .

ويبيح الاسلام للرجل المتزوج من اربع نساء عدا ما ملكت يمينه من الجوارى أن يسوى بين الأطفال ، فإين الجارية له نفس الحقوق التى يتمتع بها ابن السيدة ، ولم يحرم الاسلام زواج الرجل من غير المسلمة ، ولكنه جعل الولد تابعا لآبيه اذا حصل على الطلاق .

وكان للمرأة نفس حقوق الرجل فى طلب الطلاق اذا توافرت أسبابه ، ومن هذه الأسباب مرض لا يرجى شفاؤه ، أو نقص فى الرجولة ، أو خيانة الزوجية ، أو منع حقوق الزوجة ، أو القرية لهم أو عدم وجود التوافق بين الزوجين ، وزادت المرأة على الرجل حقا فى طلب الطلاق وهو أن الزوج لا يستطيع الانفاق عليها .

وقد سلبت من المرأة كل هذه الحقوق فلم يعد في مكانها طالب الطلاق ولو كان زوجها أقل الناس عملاً بأوامر اسلام .

وتدلنا القصة الآتية على أن النبي أجاز الطلاق اذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجين وهو أنه (صلى الله عليه وسلم) رأى (مفيثا) يسير وراء زوجته (بريرة) وهى تعرض عن حديثه ولا تعيره التفاتا فأرسل فى طلب الزوجين ونصح الزوجة بأن تبقى تحت طوع بعلها ، ولكنها أجاب بأنها لا تحبه ولا تطيق الصبر على معاشرته فقال لمفيث أنه من العبث أن يمسك انسان زوجة لا تبادله الحب ولا تريد معاشرته ، ثم طلقهما .

وقد أعطى الدين للمرأة حق التصرف فى جسمها فلا تمنحه الا لمن تريد ولا تتزوج مكرهة ، وسواء فى ذلك الحرة أو الجارية .

كل هذه التعاليم القديمة التى نص عليها الاسلام لعبت بها يد الدين لا ذمة لهم ولا ضمير ، واصبحوا لا يخشون الله انما يبتغون مرضاة اسيادهم وملوكهم الذين يمنحونهم المال والحياة ، فأخذوا يفسرون أوامر الدين وفق الاهواء والاغراض ، فوضعوا قواعد هى خليط من ممنوع وحرام ، ولا اتصال بينها وبين قواعد الدين الاصلية ، فالدين لم يقض بغطاء الرأس والوجه وأخفاء الشعر ، وانما جعل ذلك بعض السلاطين غيرة منهم على النساء ، والدين لم يأمر النساء الا بستر أجسامهن لانهن كن - فى عهد النبي - يسنن بصدور مكشوفة وملابس لا تغطي كل أجسامهن ، ولو ان عادة غطاء الرأس كانت معروفة أو جاء بها الاسلام لما استطاع النبي أن يرى زينب زوجة زيد وهى تمشط شعرها فأحبها ، وقد ذكر ذلك فى

القرآن « تخفى فى نفسك ما لله مبديه وتخفى الناس
والله احق ان تخشاه » ولما جاءه زيد يحدثه فى طلاق
زينب قال له « امسك عليك زوجك واتق الله » فلما
طلقها زيد تزوجها النبى .

وكان النبى هو الوحيد الذى يعلم الناس دينهم الا اذا
حال بينه وبين ذلك مرض او عاق عائق فانه كان يرسل
من ينوب عنه ، وبعد وفاة النبى كان العلماء يعلمون
الناس ولا ينالون عن ذلك ابدا او يأخذون مرتبا ، وظل
هكذا حتى عهد معاوية ، ففرض الأجور العلماء وأجرى
لهم المراتب فأصبحوا خاضعين وينتهون بنهيهم ويفمضون
العين عن مساوئه ويعبثون فى الدين ما سولت لهم
نفوسهم ابتغاء مرضاة السلطان .

حرم الاسلام قتل الاطفال واجهاض النساء وكان
العرب يفعلون ذلك خوف الفقر فنهاهم الاسلام عنه ،
لكن هذا النهى الصريح لم يجد منفذا الى جدوان الحريم
وليس اندافع للقتل هو الفقر ، كما كان عند العرب ،
بل الاثرة والطمع وحب الملك والفيرة ، وأمن بعض
السلاطين فى الضلالة فسنوا قانون قتل الأخ محافظة
على الملك .

فبأى حق بعد هذا تسمى تلك الدور حريما تشبيها
بالكعبة والبيت الحرام ؟ ولو أنصفوا لسموها « بيوت
الشروع » ولو أطلع النبى الآن على ما يسمونه « حريما »
وما اقتراه السلطين والعلماء على الاسلام لانكرهم جميعا
وبرا الاسلام منهم .

تولى الخلفاء الراشدون شئون الاسلام من بعد النبي فساروا على منهجه وتبعوا خطاه ، وبالرغم من توسع الاملاك وكثرة المال فان هؤلاء الخلفاء ظلوا يعيشون عيشة بسيطة لا يختلفون فيها عن سائر افراد الشعب .

ولما آل الامر الى معاوية اتخذ دمشق عاصمة للملكه وبنى قصر الخضراء وخصص فيه جناحا لسكنى النساء ، فكان هذا اول حجر وضع فى بناء الحريم .

وجاء من بعده ابنه يزيد فكان همه اللهو والنساء ، وكان اول خليفة شرب الخمر جهارا واكثر من شراء الجوارى وبناء القصور لهن ليتمتع بهن وحده ، وانتهى عهد الفتوحات الاسلامية واشتغل الخلفاء باللهو وتعلقوا بالحب ، فكان كل منهم يزل الثانى فى اقتناء الجوارى والراقصات ولا يعنيه من شئون الدولة الا أن تكون لذته موفورة وجواريه حاضرة ، فاذا سمع بجارية لا يدخر وسعا فى سبيل الحصول عليها ولا يقتصد فى الثمن .

ولما آل الملك الى العباسيين وكثر الطلب على الجوارى ارفع ثمنهن حتى بلغ ثمن الجارية مائة الف درهم كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر ليرضى لذته ويطفىء شهوته ، وملا الاعين نهر الدجلة بالسفن يخالها الناظر اسطولا ، ولم تكن الا مسكنا للراقصات والمغنيات والجوارى من بيض وسود وامتلأت القصور بالاغوات والفلمن ، وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة فحصل التنافس ثم الفيرة فالقتل بالسم او الخنجر واصبح الحكم كله فى يد النساء والموالى ، فلما تقلب

هو لاكره ملك التتار على دولة العباسيين فى خلافة
 المنصور جالس ذلك الخليفة فى قصره ينتظر دخول الفاتح
 ولم يجد طريقا للدفاع عن نفسه الا ان يهمل الاوانى
 بالآلىء والجواهر ليقدمها للملك المفسر وفى ظنه ان
 هو لاكو تبهره هذه النفائس ، ولكن خاب قائله ، فان ملك
 التتار وزع الحواهر على رجال جيشه ، ثم اخذ الخليفة
 ونساءه ، وكان عددهن نحو الخمسمائة الى مئتين ،
 وهناك امر بوضع الخليفة فى حقيبة من الجلد وان يفرق
 فى نهر دجلة بعد ان يطاف به شوارع بغداد .

الحريم عند سلاطين آل عثمان

ان الباحث المتعمق فى أعمال السلاطين العثمانيين لا يرى فى أعمالهم أظهر من الخنق والشنق والتسميم والاغراق والحبس ، فقد كانوا يعتقدون ان هذه الاسس تمهد للسلطة وتوطد مركز الخليفة لأنها تبعد المنافسين من الطريق وكانت أنجح الطرق للتخلص من المزاحمين .

وليت شعرى كيف كانت المرأة تصبر على آلام الحمل وهى تعلم أن طفلها سيقتل عقب الولادة ؟ ولست أدري بأى عاطفة كانت تتقدم المرأة الى السلطان تبادل القبلات وتنافس غيرها فى حبه وهى لا تملك من أمرها سوى الساعة التى تحيا فيها ، وربما لا تطلع عليها شمس الغد حتى تكون غريقة فى البسفور ، وأغلب ظنى ان ذلك الزمن انفراد بصنف مخصوص من النساء لا يرين ولا يسمعن ولا يشعرون .

كان السلطان بايزيد الأول هو أول من وضع مبدأ قتل الأخ ، وجرى السلاطين من بعده على هذه السنة بحكم العادة حتى جاء السلطان محمد الثانى فجعل قتل الأخ قانونا من قوانين الملك وركنا من أركان حفلة التتويج ففى اليوم الذى يتولى فيه السلطان يقتل سائر اخوته، ومن عجب ان هذه الجريمة تستند الى افتاء المفتى الذى

يأبى إلا أن يفترى على القرآن ويستوحى منه فتواه
فيقول إن حياة هؤلاء الاخوة قد تؤدي الى الفتنة ،
ويقول القرآن « الفتنة اشد من القتل » .

ولم يكتف السلاطين بقتل الاخوة ، بل كانوا يقتلون
ابناء بناتهم وابناء اخواتهم ، فاذا ولدت ابنة السلطان
او اخته مولودا ذكرا يقتل في الحال ، وما نجا رجل
من هذا القتل الا اذا ساعدته ظروف قوية على الاختفاء
او الهرب او شاء القدر أن يكون هو النجل الوحيد
للسلطان ، وكثيرا ما كان السلاطين لا ينتظرون حتى
تضع المرأة حملها بل يمجلون بها الى البسفور اقتصادا
للوقت والمجهود ، وظل قانون قتل الأخ قائما حوالى
اربعمائة سنة ، حتى جاء السلطان عبد المجيد فألغى
هذا القانون وصار الاخوة لا يقتلون ولكن يحيون .

وانسع ملك العثمانيين وآلت اليهم الخلافة فاصبحوا
يلقبون « بظل الله على الأرض » فتوسعوا فى اقتناء
الجوارى والفلماني من شركسيين ومجريين ويونانيين
وبلغاريين والباينيين ، فمن نال منهم حظوة عند السلطان
رقى الى اعلى المناصب حتى أن بعضهم انعم عليه بلقب
الامارة وكانت الخطوة لا تنال بدكاء العقول ولكن بجمال
الاجسام .

راى سليمان الاول ، وكان فى ذلك الوقت وليا للعهد،
فتى يونانيا يساعد اياه ، وكان بحارا ، فاعجبه الفتى
وراقه منه انه كان يجيد العزف على الكمنجة ، فاصطحب
الفتى وقربه اليه ، فكان لا يجلس فى مجلس الا والفتى
الى جانبه ، فلما آل اليه الحكم رقع من شأن هذا
الفتى وعرفه التاريخ تحت اسم ابراهيم باشا ، فكان
يركب الى جانب السلطان فى الفسزوات والفتوح ،

ويستقبل معه رسل الماليك ، ويدبر معه شئون الدولة وأصبح وزيره الأكبر . ومع أن ابراهيم باشا كان مخلصا لسيده ولم يسيء استعمال سلطته فان السلطان امر يخنقه على حين فجأة ، والواقع ان ابراهيم باشا لم يقتل الا بدسياسة امرأة .

ففى الوقت الذى علا فيه شأن ابراهيم فى الخارج علا فيه أيضا شأن جارية فى الحريم ، وكانت تدعى « روكسلان » وكانت آية فى الجمال وساءها ان يشاركها احد فى الاستئثار بالسلطان ، فما زالت تسعى حتى أغرت السلطان بقتل ابراهيم ، ولم يقف تأثيرها على السلطان عند هذا الحد ، بل جعلته يقتل ابنه مصطفى لأنه من امرأة غيرها .

ولم يكن من السهل ادارة الحريم ، كما يجب ، فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية ، وفى نفس الوقت كان من واجبها أن تكون على اتصال بشئون الملك فى الخارج ومراقبة ما يجرى فى الحريم فى الداخل ، والعمل على أن تتصل احدى النساء بالحياة الخارجية ، ولكن النساء كى أمهر من أن تقف فى سبيلهن الجدران ، وثبت ان المحظية « روقية » وهى من فينيسيا كانت ترأسل « كاترين دى مديسى » وكانت تحاول استغلال نفوذها لصانع بلادها .

واحتفل مراد الثالث بختان ابنه احتفالا لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، فأقيمت الافراح خمسة وخمسين يوما أنفقت فيها الملايين وحضرها مندوبون من جميع الدول واتجهت أنظار العالم الى قطعة جلد ستقطع من طفل .

أقيمت القصور الفخمة لسكنى الضيوف من ملوك
وأمرء ، وهدمت أحياء بأكملها ليقام فيها الاحتفال
ووسعت الشوارع لمرور الموكب وأقيمت السراقات
والمسارح وجيء بالممثلين والمشعوذين وأرباب الألعاب
من كل قطر حتى أصبحت العين لا تحصى عدد
الملاهي .

وفى اليوم الأول من الاحتفال خرج السلطان فى
مهرجان عظيم الى السراى المعد له ثم تبعه ولى العهد
ثم السلطانان ثم الحریم بأكمله يحتاط به بحر من الاغوات
السود ، وأقبلت وفود المهنيين من نفيس الجواهر وفاخر
الحلى وأنيق الثياب ، وكان المهنيون يتنافسون فى تقديم
الهدايا ، فكل منهم يحاول أن يبرز الثانى فى هديته .

وبعد ذلك ينصرف الجميع الى مشاهدة الملاهي فيمر
الدراويش والراقصات والمغنون والخيالة وحملة الرماح
والعاب الفروسية ، فاذا حان المساء جاء دور الفقراء
فكانت تدبج لهم العجول والخراف مما لا عدد له ،
وفى الليل تموج المدينة بالأنوار وتزدحم الشوارع
بالناس ، وتسير المركبات الفخمة متنقلة من سراى الى
سراى ، والناس يهللون احتفالا بظهور صبى .

وبعد أن شفى الغلام أهدى له أبوه جارية من أجمل
الجوارى مكافأة له على احتمال الألم .

وتتابع سلاطين آل عثمان وكلهم سواء فى العسف
والظلم حتى جاء ابراهيم الأول فكان عبدا لشهوته ، فكان
مقامه فى الحریم على الوسائد الناعمة وحوله النساء
والغلمان والزهور والروائح العطرية وكل ما من شأنه
اتارة الشهوة ، وكان يتأنق فى ثيابه ويسرف فى التحلى
بالجواهر حتى انه كان يعلق الجواهر فى لحيته ، وزين

مركبته وسروج خيله بالذهب الخالص ، وكان يطوف أحيانا مع وزرائه فى المدينة ثم لا يلبث ان يقطع الطواف ويسرع فى العودة الى الحريم ، وحدث مرة انه اثناء طوافه رأى امرأة كبيرة الجسم فأعجبه هذا النوع من النساء ، فأمر بأن يؤتى له بأسمن امرأة فى المدينة ، وخرجت الجنود للبحث وجاءوا بنساء كثيرات لم يوافقهن خياله ، حتى عثروا أخيرا على أرمنية حازت رضا السلطان فقربها اليه ، وأخذ نفوذها يكبر بنسبة جسمها حتى تضاعل أمام نفوذها نفوذ السلطان ونفوذ المحظيات الاخريات فتآمرت المحظيات ضدها ، وبلغها خبر المؤامرة فأقامت وليمة دعت اليها غريماتها ، ثم أمرت بخنقهن على المائدة ، وانفردت هى بالسلطة ، فكانت تفرى السلطان بقتل من تشاء وترفع من تشاء ، والسلطان لا يرد لها كلمة لأنه كان عبدا لشهوته ، والويل للطبيب الذى ينصح السلطان بمراعاة صحته ، فإنه يعرض نفسه لفضب لا يعرف نتيجته .

وفى عهد مراد الرابع علا نجم غلام جميل اسمه (حسن أغا) واحبه السلطان حبا جعله يأمر بأن تقدم له واجبات الخضوع كما تقدم للسلطان نفسه ، وان تصنع ملابس من نفس القماش الذى تصنع منه ملابس السلطان ، وان يكون جواده وجواد السلطان متماثلين فى الشكل واللون ، وقام الكتاب والشعراء يصوغون المديح فى حسن أغا ابتغاء مرضاة السلطان فسموه « الشمس المشرقة » وكان السلطان يسر لهذا المديح ويفدق على قائله بالمعطايا .

ولكن الحريم ثارت وساءها ان تنزع منها السلطة ، ورأت النساء ان يتخلصن من هذا المنافس ، فاتفقت أم

السلطان مع المحظيات وكبير الخصيان على الكيد لحسن
أغا ، ولكن هذه المؤامرة أسفرت عن غضب السلطان على
كبير الخصيان فأمر بقتله ، ولم تستطع أم السلطان أن
تستبدل هذا القتل بالنفى ، وظلت « الشمس المشرقة »
تشرق على الشعب دون أن يمسها سوء ، ولكن حسن
أغا أبطرت النعمة ونسى أنه وإن كان يلبس كملايس
السلطان فإن منزلته ومرتبته هي بواب .

وليس من العجيب أن نرى سلاطين آل عثمان إذا
جلسوا على العرش أصبحوا كالوحوش الضارية فإن
ذلك يرجع إلى أن الواحد منهم يظل ، وهو ولي العهد ،
سجيناً ، فلا يفادر سجنه إلا إلى العرش ، وكان لولى
العهد حريم خاص وسط الحريم العام ، فكان في سجن
من داخل سجن ، ولا يجوز لأحد أن يخاطبه دون إذن
السلطان ، وبالرغم من أن هذه العيشة لم تكن جذلة
ولا تترتاح إليها النفوس فإن بعض أولياء العهود كانوا
يأبون ميسارحة حريمهم إذا انفتح لهم الباب لتنسم
الحرية ، وذلك خوفاً من أن يكون فى الأمر دسيسة
من السلطان يحاول بها قتلهم وكان أغلبهم لا يفادرون
حريمهم إلا إذا جاءوا له بجثة السلطان الميت .

وعندما يتولى السلطان تسير حريمه لاحتلال السراى
وطرد حريم السلطان الميت إلى سراى قديم وقد ثور
الحريم المطرودة لسلطتها الضائعة ، فيملأون الجو صراخاً
ويكسرن الشبايك والأبواب ويخربن فى القصر بقدر
ما يستطيعن ، ولعلم السلطان بأن مدة سلطتهن لا تطول
إلا بقدر ما يعيش السلطان كانت أحدهن إذا نالتها
الحظوة أسرفت فى استعمال نفوذها لأن الوقت قصير

وكانت تدور في الحريم حرب خفية لا تتساب رضى
السفطان والاستبداد بالنفوذ .

وهكذا ظلت الحريم يتعرضن في شئون الدولة
والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى الياشاه
عبد الحميد خان ساكن قصر بلدى .

الحريم فى مصر

لا يكاد الرجال ، وعلى الاخص الأوربيون ، يسمعون كلمة الحريم ، حتى ينصرف خيالهم الى الرقص والفناء أو بركة من الماء المغطى تتواكب حولها العذارى والفتيات يسبحن ويرقصن ويفنن .

ولكن الذى وقعت عليه عين الحريم فى مصر ليس فيه شئ من هذا الخيال ، فالجوارى فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة ، ولكنها غير مفرية ، فالحريم بكائته تسيطر عليه امرأة ، وهى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى ، وفى كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية ، مام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الفيرة ، والأم حرصا على ألا يتزوج ابنها من جارية ، ورئيسة الجوارى طمعا فى أن تصبح هى السيدة .

وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن أداة للتمتع واللهو ، وإنما هن خادمت ، وإن كن أقل من الخادمت حقوقا ، فهن لا يتناولن أجرا على خدمتهن ، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدم الى بيت سواه .

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها ، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بالآ تقوم السيدة بعمل

بأ ، ولو كان في متناول اليد ، فتقديم القهوة له نظام خاص ، ويحمل الملائس على البدلة له نظام خاص ، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضا ، ولهذا قد يرى الإنسان كثيرا من الجوارى منهمكات ولا يرى عملا يؤدي ، فهناك مثلا « سفرجى كلفة » ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط ، وهنا « قهوجى كلفة » وعملها تقديم القهوة فقط ، وهنا « شمرجى كلفة » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد ، وعملها ينحصر بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم . ولذلك ترى السيدة « هانم افندى » فيهن الخطر كل الخطر لكثرة احتكاكهن بالبك أو الباشا ولكي تأمن السيدة شهرهن تفقد عليهن الهدايا لتكسب مودتهن أو تنزل بهن سخطها لتجملهن من غضبها على حذر ، على أن النتيجة في كلتا الحالتين غير مضمونة ولهذا تهتم بعض السيدات بخدمة زوجها بنفسها ، أما بدافع الحب أو بدافع الحذر وخصوصا إذا كانت هذه السيدة أصلها جارية ثم أصبحت « هانم افندى » فإنها تعرف فقط كيف تبعد الجوارى عن زوجها .

وكان البك أو الباشا رمزا للسيادة فقط ، ولكنه في الواقع لا يعرف شيئا مما يحدث في داخل الحريم ولا يهتم لمعرفته ، فإذا دخل إلى البيت يلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثفور ، والويل لمن تتقدم إليه بشكاية فإن هذا يمكن مزاج البك ، وما وجد الحريم إلا ليدخل على نفسه السرور ، وهذا فضلا عن أنه لا يستطيع أن ينفع الجارية بشيء إذا شكت إليه ، بل ربما جلبت شكايتها لها آلاما جديدة .

يبيح الدين للرجل أن يخالط جواريه وينص على أن ابن الجارية لا يقل عن ابن السيدة في شيء ولكن من ذا

الذي يتبع تعاليم الدين لا وحتى اذا فرضنا ان الرجل خادل بناريته بذية سمينة - وما اقل ذلك - فان هذا غير بان ان تبلغ الجارية اماليا ، فالسيد قضى ساعة لهوه وانتهى ، والجارية قتال وهينة الخوف من المدين الرقبة ولا تسمتع لمع ان تبوح بسرها لاعد ، وان تبوح لا ربما الى جارية ماليا والجواري يدعون بعضهم « همشريم » اى اختى ، رسن فعلا اخوات ، فى الشقاء ، اخوات فى الحرمان ، ولكنهن ايضا اخوات فى الامل ، اخوات فى الطموح ، اخوات فى الضعف ، وربما باحت احدهن بسر اختها تحت تأثير الخوف ليس الا .

اتبوح بسرها الى احد الاغوات ؟ قد تجد من هذا الرجل بعض المطف او تسمع منه كلمة تعزية ولكنهم جبناء لا يسمتعون شيئا .

وهكذا تظل المسكينة فريسة الخوف وهى تعلم ان سرها سيفتضح يوما ما ، وانها ان استطاعت ان نجس لسانها فان جسمها سينم عنها ، فربما كان من الخير ان تخبر سيدها بالامر . ولكن كيف تخبره ، انها لا تجمعها بذلك السيد الا جامعة الطاعة العمياء ، ثم هى تقوم على خدمته كل يوم فلا يعيرها التفاتا بمد تلك الليلة ، ويتناول منها الملابس حسب عادته القديمة ، بسرعة او بتؤدة ، دون ان يلحظ انها هى ، هى بعينها ، تقوم على خدمته .

وها هى اخبرته ، فماذا هو صانع ؟ سيحيلها على الهانم لتدير الامر ، والهانم لها اولاد .. ولا يعجبها طبعاً ان يكون هناك اولاد من غيرها يشاركون اولادها فى الاسم والجاه والميراث . وهنا ينصب على الجارية غضب الهانم مزدوجاً ، غضبها بصفتها زوجة ، وغضبها بصفتها

أما ، وإذا أراد السيد الا يكل الامر الى الهائم . وفضل أن يخبر رئيسة الجوارى لعلها تتدبر الامر ، فان النتيجة لن تكون خيرا من الاولى ، لأن الرئيسة تكون دائما فى صف الهائم ، وقد لا يخبرها بالامر مباشرة خوفا من سيدتها ، ولكنها لا تعدم وسيلة تفهمها بها حقيقة المسألة وتأمّر السيدة بأن تعفى الجارية من العمل وتلزم غرقتها لا للراحة كما قد يظن ، ولكنها تحبس فى الغرفة لتذوق العذاب . وأعرف قصة جارية حبستها سيدتها فى الغرفة وأمرتها بأن تحيك « ناموسية » فكانت كلما حكت جزءا قطمته السيدة بحجة انه خطأ ، وترشد الجارية الى الصواب ويكون هذا الارشاد دائما مصحوبا ببعض اللكمات والرفصات والقرصات ، فاذا جاء اليوم الثانى وفعلت الجارية حسب الارشاد اكتشفت السيدة خطأ جديدا ، وفعلت بها فعلة اليوم السابق .

ولا يكاد يختلف حريم فى مصر عن الآخر ، فالاساس متشابه والنظام واحد ، وبعد شرب القهوة يبدأ الحديث ، وهو حديث عجيب ، فمثلا عيشة هائم ظلت مدة لا تلد وكان يقتلها الشوق الى الاطفال ، فأشارت عليها جاريتها العجوز بأن تزور النخلتين ، وهما نخلتان لا تفضل بينهما الا فرجة بسيطة فأخذت عيشة هائم تتردد يوميا على النخلتين وتمر من بينهما ، فرزقها الله بغلام ... ما شاء الله !!

وفى حريم احد الامراء اصيب طفل بحمى التيفود ، وحرار الأطباء فى علاجه فجاء أغا القصر وكتب آية من القرآن على ورقة ، ثم وضع الورقة فى كوب من الماء حتى محيت الكتابة ، وسقى المريض من هذا الماء المخلوط بالحبر فشفى بعد خمس دقائق ... ما شاء الله !!

ونساء الحريم جميعا يؤمن بالخرافات ويمتسكن
 بالسحر فمنهن من تأتى بعظام الحيوانات فتقرأ عليه
 التعاويذ وتبخرها ثم تضعها تحت رأس زوجها لكي
 تطرد من قلبه حب واحدة أخرى ولا تبخل الواحدة بالمال
 في سبيل الحصول على شراب الحب ، وهو شراب
 يجهزه بعض المشايخ « الباتمين » ، ويقراء عليه عزائمه
 وتعاويذه فإذا شرب منه الزوج أحب زوجته الى حد
 الجنون ، وإذا أخفق فعل السحر لم ينسب ذلك الى كون
 كل هذا دجلا لا طائل تحته ، وإنما يقال ان الهائم لم
 يستعمل السحر حسب الشروط المطلوبة وهنا أقول
 أنا ... ما شاء الله .

ولم يكن مسموحا للطبيب بعبادة الحريم ، فكانت
 مرضى الحريم تداوى بطب التجارب ، فإذا استعصى
 الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب ولكن لا يسمحون
 له برؤية المريضة شخصيا والكشف عليها بل يتولى احد
 الأغوات « الترجمة » بين العيلة والطبيب ، فيصف
 للطبيب أوجاع المريضة وما تحس به ، وهذا يصف العلاج
 اللازم ، فإذا أخفق العلاج ، وهو المنتظر في مثل هذه
 الأحوال ، اعتبر أنصار القديم هذا الاخفاق انتصارا
 لهم واتخذوه ذريعة للطعن في الطب والأطباء . وإذا شفى
 المريض لم ينسب هذا الى مهارة الطبيب . ولكن الى
 تعويذة الشيخ أو الى دواء (بلدى) وصفته (الحاجة)
 وبالتدرج سمح للطبيب بعبادة المريضة شخصيا بشرط
 ألا يرى وجهها ، فكانت تقنع وتحجب ولا تكشف الا عن
 موضع الألم ، ويسكون رئيس الأغوات حاضرا ساعة
 الكشف .

ولم تكن نساء الحريم تفهم الأمومة على حقيقتها ، بل

كن يعتبرن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى ، فالأطفال فى نظرها درع يقيها شر الضرة ، فإذا حدث أن الزوج تزوج بأخرى بالرغم من وجود الأطفال ، فإن الأم تصب غضبها عليهم لأنهم لم يستطيعوا درء الخطر ، فتحرمهم من اللعب والفسحة وتهمل شأنهم ، وتقسو عليهم ، وكأنها نسيت أنها تعذبت فى حملهم شهورا ، وهم فى نظرها هدايا منحتها لزوجها لتفربه على البقاء معها ، فإذا لم يفلح الإغراء فهى تحاول اتلاف الهدايا وتكسبها .

على ان الخطب قد يهون اذا كانت الضرة فى داخل الحريم ، فان هناك عينا ترى واذا تسمع وفرصة للكفاح واسترداد الزوج بالتحبب اليه أو الطعن فى الزوجة الأخرى ، ولكن البلوى تكبر والمصيبة تتم اذا كانت المنافسة أجنبية نقابها الزوج خارج المنزل ، وتحول جدران الحريم دون وصول الزوجة إليها ، فان سبل الكفاح هنا تكون ولا محل للمنافسة إلا إذا ، وتصبح الزوجة مكتوفة الأيدي أمام عدو لا تراه ولا تستطيع الوصول اليه . والويل للأطفال فى هذه الحالة ، فانهم يشردون فى بيت أبيهم ، والتى تشردهم هى أمهم التى ولدتهم ، فأنستها الفيرة حنان الأمومة .

أما التعليم فحظ الصبيان منه أوفر من حظ البنات قعيدات البيوت ، وفى الطبقة المتوسطة يرسلون الى المدارس ، وفى الطبقات العليا يرسل الأولاد الى أوروبا للدراسة ، أو يؤنى لهم بمعاينة أجنبية لتعلمهم فى البيت ، ولكن الأم ترى فى هذه المعلمة خطرا على مركزها تصعب عليها مأموريتها فتتدخل فى الدرس . وهى

لا تستطيع كتابة اسمها ، فتشطب من جدول الدراسة ما تريد وتقرر ما تريد حتى يضيق ذرع المعلمة فتعجز البيت ، وتأتى غيرها فقم لها ما وقع للأولى ، وأخيرا يأس رب البيت فلا يأتى بمعلمات ويحرم الأولاد من التعليم ، وإذا أسند الدرس الى معلم مسمى به السعاة الى سبدهم وطعمتوا فى كفاءته وأخلاقه ، فان لم تجد هذه الطعون اذنا عند السيد اتوا اليه من طريق قل أن بخفي ، فيدعون ان المعلم طعن فى الاسلام والنسب، وأنه يلحق الأطفال تعاليم النصرانية . ومهما كان رب البيت واسم التفكير فانه لا يسمح مطلقا بالطعن فى دينه فيخلى سبيل المعلم . فلا يحب بعد ذلك اذا كان الأولاد الحرىم غير محبين للمعلم ، حتى أن الخديوى عباس حلمى الثانى كان لا يفهم شغفى بالمطالعة . ورأى مرة كتابا فى يدي فقال لى (ما هذا الحب ان ؟) وها هي الظروف التى جعلت من خديوى مصر رجلا من كسار المولدين . ومن زوجة الخديوى أدبية وكثاة ، فهل نرى اكان كل منا على حق فى رأيه ، أم كنا كلانا على ضلالة ؟!

على ان لكل قاعدة شواذا . فان البرنس كان اميرا وشاعرا . وكان يركب عربته فتطوف به الساعات الكثيرة وفى يده كتاب يقرأ فيه . والى جانبه عدة كتب اخرى . واغلب ظنى انه ما كان يعتمد الى هذه الطريقة الا ليستطيع التفرغ للمطالعة بعيدا عن الزيارات والمحادثات التليفونية والمقابلات التى تصرفه عن كتبه العزيزة .

ولما اردت ان اتعلم اللغة العربية واتعمق فى دراستها ودراسة الاسلام . وكان من المحال اسناد هذا الى أحد اعلماء اجهله باللغات الاوروبية التى أجيدها . ووكل

أمر تعليمي الى المستشرق العظيم البروفسير « هس » وهو رجل لا ازال اذكره بخير واشكره على كل كلمة علمية اياها . فكننا نجلس فى غرفة المكتب فى سراى (مسترد) ويبدأ فى درسه . فأتنقل معه من مكة الى المدينة . ومن الحضر الى البادية فى خفة ومهارة ، حتى أن قواعد اللغة العربية على صعوبتها وجدتها منه سهلة التناول ، وكان يعلمنى الاسلام من آيات القرآن . وكنت اقبله لابسمة معطفى وقد وضعت على رأسى غطاء . ولكنهم طلبوا منى بوما أن أغطى كفى أيضا . اذ لا يجوز أن أمد له يدى عارية !!

عجبا !! الملم لا يحق له أن يرى يدى ، وهو الذى يرى نفسى كلها . اليس هو الذى يرى روحى ؟ هنا علمت أن القوم انما يريدون أن يجعلونى عبدة لتقاليد جامدة نشأوا عليها ولم يفكروا فيها .

وكان عندى فى سراى « مسترد » خادمة اسمها « جبريلة » تقدمت بشهادات حسنة ممضاة من مركزية أو فيكونتة أو بارونة . ويشهد الجميع بأنها نعم الخادمة . وفى الواقع كانت نشيطة وتفهم ما أريد بإشارة بسيطة . وكانت الخدمات يكرهها لأنها كانت دائما تحاول التقدم عليهن والتقرب منى وكانت تنتظر عودتى فى المساء مهما تأخر الوقت فلا تنام حتى آوى الى فراشى . فاغتبطت بها كثيرا . وخرجت مرة لبمض الشئون فلما عدت أخبرنى الخدم بأن « جبريلة » عزفت على البيانو اثناء غيابى فلم أعتبر هذا خطيئة تستوجب العقاب . الا أنى أنا شخصا أعترف على البيانو . فلا أستطيع أن أحرم على غيرى ما أحله لنفسى . ولكنى سألتها أين تعلمت العزف . فأجابتنى بأنها كاثوليكية وتعلمت العزف

فى الكنيسة فأصبحت أنظر إليها نظرة اخرى . ولكن لم يخامرنى فى أمرها شك .

وكانت تضع منى بعض اشياء وقطع من الملابس . وأخرا ضاعت مرآة جميلة باطار مرصع . وبالرغم من أن الخدم جميعا بكرهون جبريلة فانهم شاركوني فى الراى فى انه لا يمكن أن تكون هى السارقة . فطمأنت الخدم بأن الأشياء سوف توجد من نفسها .

وحدث اننى أرسلت خادمتى الأولى « هرملين » الى الاسكندرية . فأخذت جبريلة مكانها فى هذه الليلة ونامت فى الغرفة المجاورة لغرفتى . وكنت فى هذه الليلة متعبة . وقالت جبريلة وهى تسدل الناموسية انها ستسهر فى غرفتها اذ ربما أحتاج اليها . ولكننى أمرتها بان تنام فلن أحتاج اليها . فأطفت النور وخرجت . واستسلمت للنوم فحلمت اننى فى غابة كثيفة مظلمة جدا . تكنت ، أتمسك الطسربق بيدى . وفجأة رابت شمعان من نور يقتربان منى . ثم تبينت انهما لسما شمعى نور بل نظرتين ، فاستيقظت من نومى فرايت عيين تسندان بى احداق سوء ... جبريلة !!

واعتذرت عن وجودها الى جانب فراشى بانها ظننت بانى ناديتها وطار النوم من عينى وشعرت بانها تكذب . ولو لم تكن نظرتها نظرة سوء لما أيقظتنى من النوم . فشمقننى أمرها واصبحت فى نظرى لفزا سرنى حله .

وبعد بضعة ايام وصل الى التماس من رجل عبث به الأناام يرجو مساعدته فى الحصول على وظيفة . او منحه اجرة السفر للسودة الى بلاده . وجلست اقرا وكانت جبريلة فى الغرفة ترتب بعض الأشياء ، فقالت

بصوت ضعيف « اننى اعرف هذا وهو انسان ذكى قميس
ويا حبذا لو تنازلت صاحبة السمو ورائه شخصيا لتتأكد
بنفسها من صحة ما أقول » فأجبتها الى هذا الطلب لاننى
ادعى معرفة النفوس . فذهبت الى باب الحديقة تتبصنى
جبريلة . فوجدت رجلا نحيلا شاحبا . ولكنى لم الاحظ
عليه الذكاء المنشود ، ومع ذلك لم انخل عليه
بالمساعدة .

وحدث اننى احتجت الى مفتاح كانت تحمله جبريلة .
ولما لم تكن هى موجودة أرسلت من يبحث عن المفتاح فـ
فرفقتها ولكنهم وجدوا بعض الأشياء الضائعة . ومن
ضمنها المارآة الثمينة . وعثروا على خطـسابات من
ومراسلات بينها وبين قسيس فى دير . وفيها شكر
على الملابس التى وصلت الى الدير وكشف باللبسات
جديدة . ولما عادت جبريلة لم تفقد رزانتها . بل تقدمت
بكل جراءة وقالت انها تنتظر العقاب الذى سيحل بها ،
فأطلقت سراحها دون عقاب . وعلمت فيما بعد أنهما
التحقت بأحد الأديرة ، وأما الرجل الذى أحسنت اليه
على باب الحديقة فقد اكتشف البوليس انه فوضوى
ونفاه الى بلاده .

دراسة من :

دراسة عن :

محمد بن عبد الله

بقلم :

سعد رضوان

أسيام جويدان

إذا كانت الأميرة جويدان قد قدمت لنا فى مذكراتها جانباً من الحياة فى عهدنا فانها قد اطلعتنا على الجانب الذى عرفتته من الحياة فى القصور التى عاشت بها هذه البنت الشقية أو الأميرة المدللة .

ولكنها لم تكلمنا عن باقى افراد ولطبقات الشعب المصرى فى عهدنا ، والحق انهما لم تكن لتستطيع فحياتها كأميرة زوجة للخديوى فى عهد بدأ فيه تعليم النساء وخروجهن على استحياء ، لم تمكنها هذه الظروف من الاطلاع على تلك الحياة ...

والباحث إذا اراد الاطلاع على عهد من العهود فان أول ما يفصله هو البحث عن جرائد وصحف هذا العهد .

والغريب ان الصحف فى عهد جويدان كانت كثيرة ومتقدمة بشكل غير متصور ، وهى فى نفس الوقت متنوعة منها الادبية والخبرية والسياسية .

وهل أخبرك ان جورجى زيدان - أسس مجلة الهلال

في نفس السنة التي اعتلى فيها روج جريدان الهرش
في عام ١٨٩٢ .

وكانت الأهرام قد ظهرت قبل ذلك ببضعة أعوام
فأسسها سليم وبشاره تكلا عام ١٨٧٥ وهي أكبر جرائد
اليومية اليوم وقد أسس يعقوب سروف عام ١٨٨٨
بالاشتراك مع الدكتور فارس واسخندر سكاربوس برود
« المقطم » التي استمرت في الظهور حتى عام ١٩٥١ .

ومن صحف ذلك العهد السياسية « الجريدة » التي
أسسها أحمد لطفي السيد كسان حال حزب الأمة

على أن أهم جريدة سياسية هي تلك التي ظهرت في
مطلع القرن وأصدرها مصطفى كامل مؤسس الحزب
الوطني في يناير عام ١٩٠٠ وهي جريدة « اللواء »
التي ظهرت لتنافس ٥٣ جريدة ومجلة مختلفة ذات
تصدر وقتها .

ولا شك أن رقم الثلاثة وخمسين رقم ضخم يحتاج
القارئ ، ولكنه الواقع . . الواقع في شعب تعداد
كان تسعة ملايين نحة منهم سبعة ملايين ونصف من
المال والفلاحين والصناع ومليون ونصف من الملاك شبه
المعدمين الذين لا يملك الفرد منهم أكثر من فدان واحد
بينما يملك ١٢٥٠٠ فرد أكثر من ٢٠٠ فدان الفرد ويبلغ
أجر العامل أو الفلاح في اليوم ما بين قرشين وثلاثة قرشين
وميزانية الدولة سنة ١٩٠٠ كانت أحد عشر مليوناً وفي
السنوات السبع من مطلع القرن أي من عام ١٩٠٠
إلى عام ١٩٠٧ تأسست في مصر مائة وستون شركة
مجموع رأسمالها ثلاثة وأربعون مليون جنيه

لا شك أن هذه الأرقام عجيبة ولكنها كانت بداية
نهضتنا .

وفى الكلام عن صحافة المهدي يضمن أن أراجع إلى
الوراء قليلا ففي عام ١٨٦٠ اكتشف السلطان عبد الحميد
أن بلاد الشام أي سوريا ولبنان أصبحت كافرة ودخلتها
أشياء لا يقبلها شرعه كالصحف والمسارح والفنون ، وكان
اضطهاد وثورة ضد هذه البدع بل وحدثت مذبحة ضخمة
في سوريا . . وهكذا لا تعجب من أن يهاجر الصحفيون
الشوام إلى القاهرة ويستقروا بها كما هاجر رجال
مسرحهم واهل الأدب والفن عندهم .

تقرير قصر الدوبارة :

وهذا جزء من تقرير كتبه المتمد البريطاني اللورد
كرومر الذي كان يحكم مصر من « قصر الدوبارة » الذي
هو الآن مقر السفارة البريطانية بالقاهرة يقول التقرير
الذي نشر عام ١٩٠٦ :

« انه مما يؤسف له ان الصنائع اليوم في الانقراض .
فالترمواي يحل محل الحمير لنقل الركاب وبانقراض
ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها .
« وقد قل استعمال البلاط البلدي لتبليط
أراضي الغرف وحل محله البلاط الافرنجي المصنوع من
الاسمنت ، فأخذت صناعة الحصر تنقرض .
وحلت الطلمبة الحديثة في استخراج المياه محل
الساقية ، والسقائين .

ولما كان الدباغ المصري يجهل طرق الدباغة الجديدة
فقد أخذ ينقرض أمام زميله الأوروبي .

وصناعة النسيج اليدوى أصبحت ننحط وتحل محلها المنسوجات الأوروبية .

وقد بطلت أو كادت مهنة الصباغة بالنيلة بعد أن أصبحت الأقمشة ترد من الخارج مصبوغة بالصباغة الحديثة .

وأستبدل الأهالى ملابسهم المزركشة الزاهية الالوان التى كان يخطها لهم الغياطون بالملابس الأوروبية التى ترد جاهزة .

وكسدت صناعة الأحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ رغم أنهم أكثر الأهالى تمسكا بالقديم يلبسون أحذية أوروبية .

والمنجد العربى الذى كان يرضى الجيل القديم رأى نفسه عاجزا الآن عن ارضاء ذبائن اليوم الذين يطلبون منه صنع كراسى ومقاعد وأرائك من طراز لويس الرابع عشر والخامس عشر .

وقد أصبح الاختلاف ظاهرا وواضحا لكل من يقابل ويقارن بين مصر الآن ، ومصر منذ عشر سنوات أو خمسة عشر سنة فقد كانت الشوارع فى ذلك الوقت مزدحمة بمحلات الصناعات من غزالين وحائكين وعقادين وصباغين وخيامين وصاغة وعطارين وقربية (لصناعة القرب التى كانت تملأ بالماء) وسرجية (الذين يعدون الجلود بمدبقتها للصناعة) وصانعى مناخل وأقفال (فقد كانت الأقفال فى ذلك الوقت كبيرة وتصنع من الخشب ولها ذراع به سنون لفتحها) .. وأمثالهم وغيرهم .

فكل هذه المحلات التى كانت متجاورة وكثيرة قد قلت أو انقرضت وحلت محلها دكاكين صغيرة مليئة ببضائع أوروبية .. الخ .

أرايت مدى النقلة التي كانت فيها البلاد في عهد
جويدان .

في عصر كهذا يحدث للناس توتر ويتحسسون عقالهم
وتنتبه أذهانهم فرغم ما قد يبدو على العصر من هدوء
ربما كان ذهولا لما يحدث أو هروبا من الجديد أو اندفاعا
اليه كان هناك غليان في العقول والنفوس أنتج أفرادا
من المفكرين وأصحاب الرأي والأدباء والفنانين وغيرهم ولو
أردت ان أعدد هؤلاء لاحتجت الى مجلد ضخم ولذا
سأكتفى بالكلام عن بعض حوادث ورجال ذلك العهد
الذين أثروا فيه اجتماعيا خاصة وان كتابنا الحاليين
قد وفوا ذاك الزمان من الناحية السياسية بما لا يدع
مجالا لمزبد .

عالي يوسف

وفى تلك الأيام ظهرت جريدة « المؤيد » وهى جريدة اصدرها الشيخ على يوسف . وأهمية هذه الجريدة هى أنها من أولى الجرائد التى اهتمت بالأخبار أكثر من اهتمامها بالمهارات والخلافات الشخصية من مدح وذم ، وان كانت مع ذلك لم تخل من روح العصر .

وللشيخ على يوسف هذا قصص تستحق التسجيل . وأهم قصة صحفية حدثت للرجل هى حادثة سرقة البرقيات .

ففى عام ١٨٩٧ أرسل الانجليز حملة الى السودان بقيادة السردار البريطانى لقمع ثورة المهدي بالجزيرة وكان السردار يقود الجيش المصرى والجنود المصريين المشتركين فى الحملة ، ومن هنا كان اهتمام الشعب والصحف بالأخبار .

ولكن من أين تأتى الأخبار فى حالة الحرب ، اما من مراسل حربى فى الجبهة ، وهذا ما لم تكن الصحف المصرية تقدر على تغطية تكاليفه ، واما من القيادة البريطانية فى القاهرة وكبار رجال الحكومة ونظارة الحربية المصرية ، وهذا هو المصدر الوحيد للصحف

المصرية ، ولكن هؤلاء كانوا لا يعرفون شيئاً از بمعنى
أصح لا يقدمون للسائلين وخاصة الصحفيين ، غير كلام
لا يخرج من الانحصارات وعن عدم وجود خسائر وعن ان
الحالة على ما يرام . . الى آخر ما نعرفه عن البلاغات
الرسمية اناء المبارك .

رفيعة ظهرت جريدة المؤيد فى عددها الصادر فى ٢٨
يوليو عام ١٨٩٦ وقد نشرت معالاً عن احوال الجيش
المصري على الحدود .

رجاء بالمقال ان التلغرافات الأخيرة الواردة من بلدة
دوسة تفيد از السردار شديد القلق بسبب انتشار وباء
السكروليا فى نقت وبراكن خطوط المواصلات وفى
المعسكرات رانه قد أصيب من العساكر الخديوية اى
المصريين فى اسوان ٢٩ اصابة وتوفى منها ١٥ جندياً
فى بلدة كروسية حدث ٢٣ اصابة وتوفى ١٣ ، وفى
بلدة حلفا بانفت الاصابات اشد ما فقد بلغ عدد الجنود
المصريين الذين أصابهم المرض ١٥٦ جندياً توفى منهم
٩٨ . رانه رغم حدوث اصابات فى بلدة سواردة بين
الجنود الا انها لم تبلغ من الشدة ما بلغت الاصابات
فى الاهالى وخاصة الفارين اللاجئين من الجنوب هرباً
من الحرب والذين توفى عدد كبير منهم .

وبسبب هذه الاصابات وبسبب تأخر القطارات التى
تنقل المعدات والعتاد لقدم الواورات « القاطرات » فان
الهجوم على دنقلة قد تأخر مما جعل الدراويش (الثائرين
السودانيين اتباع المهدي) يتحصنون فى تلك البلدة .
وطبعاً فان نشر مثل هذه الأخبار والتفصيلات اثار

هياجا كبيرا سواء بين افسراد الشعب أو فى وزارة
الحربية وكانت تسمى نظارة .

وكانت المشكلة هى ان كل المعلومات التى نشرتها
الجريدة صحيحة ومنقولة بالنص عن برقية ارسلها
السردار باللغة الفرنسية الى نظارة الحربية ، ومعنى
هذا ان هناك احدا قد سرق نسخة من البرقية وسلمها
للجريدة .

وبلغ الأمر من الهياج ان ناظر الحربية امر بنقل
سته من موظفى الوزارة الى الحدود ، لا لانهم ثبت
ضدهم شيء ، بل لمجرد ان البرقية تدولت بين أيديهم
وهى فى مطروف مفلق .

ويحدثنا الدكتور محمود كامل المحامى والقصاص فى
كتابه أشهر القضايا المصرية عن هذه الحادثة فيوضح
ان المؤيد عادت بعد ذلك ونشرت برقيات أخرى فى نفس
الموضوع مما مكن الجريدة من تغطية انباء تلك الحرب ،
وان الذى كشف السر هو جريدة المقطم وكانت تنافس
المؤيد ، وبين الجريدتين خصومة وسباب متبادل ، وكان
للمقطم مراسل فى بلدة ببا أرسل اليها برقية فى ٢٧
يوليو عام ١٨٩٦ بها اخبار خاصة بالجريدة ، وسلمت
البرقية للمقطم من مكتب تلغراف الألبانية ، وفوجئ
صاحب المقطم بأن نفس البرقية قد نشرت فى المؤيد
رغم ان الشيخ على يوسف ليس له مراسل ببلدة
ببا . وتوجه الدكتور فارس نمر صاحب المقطم الى
رئيس مكتب الألبانية يشكو له ما حدث .

وكلف رئيس المكتب ، وكان هو نفس المكتب الرئيسى

الذى تصل اليه برقيات وزارة الحرية ، احد الموظفين بمراقبة زملائه .

وقدم الموظف تقريراً لرئيس المكتب بأنه رأى توفيق أفندى كيرلس احد موظفى المكتب ينقل صورة برقية مرسله من مراسل جريدة الديلى تلجسراف الانجليزية بالقاهرة الى جريدته ويخفيها بجيبه .

وفتش رئيس المكتب توفيق كيرلس وقبض عليه ونسخة البرقية بجيبه الذى اتضح انه على علاقة بالشيخ على يوسف وانه ينقل له صوراً من البرقيات الهامة .

والهم ان الشيخ على يوسف وتوفيق كيرلس قدما للمحاكمة وحكم ابتدائياً بحبس توفيق كيرلس ثلاثة اشهر ولكن محكمة الجنح المستأنفة براته بعد مرافعة المحاميان الهلباوى والحسينى وكانا من أشهر محامى ذلك العصر واولهما كان احد المدافعين عن المتهمين فى قضية دنشواى فيما بعد .

والقصة الثانية الشهيرة للشيخ على يوسف هى قصة زواجه .

وفى سنة ١٩٠٤ أراد على يوسف أن يتزوج . . وعلى صحافى كبير له جريدة رائجة ولا شك ان تقدم صاحب ورئيس تحرير جريدة يومية كبيرة اليوم بطلب الزواج من اية بنت سيجعلها تفرح ويجعل أهلها لا يترددون فى قبوله زوجاً لابنتهم .

ولكن عهد على يوسف كان غير ذلك فاذا كنا قد قرأنا فى مذكرات جويدان مقدار عدم احترام الخديوى

للكتب الأدبية واحتقاره لها ، فما بالك براى اهل ذلك الوقت فى الصحف والصحفيين .

الحق ان كبراء ذلك العهد لم يكونوا ينظرون الى الصحفيين الا كطبقة غير لازمة للمجتمع ، وكان الصحفي « جورنالجي » ، والجورنالجي ليس شخصا هاما يحق له الزواج ببنات العائلات الكبيرة .. كما ان الصحافة كانت ناشئة ، ونحن نعلم ان المحافظين يعارضون دائما كل جديد ولا يعترفون بقيمته الا بعد ان يفرض نفسه . والمهم ان الشيخ على تقدم لخطبة بنت احدى الاسرات الكبيرة فى عهده هى الأنسة صفية التى يرجع اصل هائلتها الى سلالة الحسين . ولم يوافق أبوها ، ولكنه بعد الحاج بعض الكبراء والوزراء والأمراء الذين وسطهم على يوسف اضطر الى الموافقة وتمت الخطبة وقدم الشيخ المهر والنیشان أى الشبكة و ..

ولكن يبدو ان الأب راجع نفسه فى هذه الزيجة فانه اخذ يماطل فى الزفاف لفترة طويلة رغبة منه فى أن يتضايق العريس فيفسخ الخطبة . ولكن العريس كان مشاغبا فقد استطاع أن يقنع العروس صفية بواسطة بعض قريباتها بالهروب من بيت أبيهـا الى منزل على يوسف الذى احضر المأذون وبعض الأصدقاء وأتم العقد .. ثم نشر الخبر فى اليوم التالى بجريدته حتى يضع الوالد أمام الأمر الواقع .

وكان حادثا خطيرا واسرع الأب الى ابلاغ النيابة ضد الشيخ بأنه غرر بابنته ، ولكن النيابة حفظت البلاغ لان الزواج سليم والبنت بلغت سن الرشد .

واتجه الأب الى القضاء فرفع دعوى أمام المحكمة الشرعية للتفريق بينهما وبطلان الزواج لعدم الكفاءة بين الزوجين .

ونظرت القضية فى جلسة ٢٥ يوليو عام ١٩٠٤ وحكمت المحكمة مبدئيا وبصفة مستعجلة بالتفريق بين الزوجين لحين الفصل فى الموضوع .

ورفضت صفية الذهاب الى منزل والدها تنفيذا للحكم ، وحتى لا تثار المشاكل فان الشيخ على يوسف قد نقل زوجته الى بيت محايده هو بيت الشيخ الرافعى لتعيش فيه بعيدا عنه وعن والدها .

ولكن القاضى رفض هذا الحل واعتبره تحديا للمحكمة وأوقف القضية لحين تنفيذ حكم المحكمة بذهاب صفية الى بيت أبيها .

والمهم ان القاضى أصدر حكمه بالطلاق لعدم التكافؤ لأن الشيخ على من أصل فقير غير معروف وان الثراء لا يريل عنه أصله ، ولأنه يعمل فى مهنة محرمة شرعا وهى الصحافة لأنها مهنة تقوم على الجاسوسية والاشاعة وكشف الأسرار وهذا ما نهى عنه الشرع !

ومهما يكن فانه بعد صدور الحكم واسترداد الأب لكرامته التى أهينت بهروب ابنته فان الوالد ابدى سماحة وأعاد تزويج على يوسف بابنته صفية بعقد جديد .

ابراهيم الويلحى وابنه محمد :

ومن ادباء تلك الفترة وصحفيها ابراهيم الويلحى الذى

ولد سنة ١٨٤٦ وتوفى عام ١٩٠٦ وأنشأ مجلة « من مباح الشرق » تلك المجلة الساخرة التي كان الناس ينتظرونها مساء كل خميس لما فيها من سور كاريكاتورية ساخرة وكان ابراهيم قد عاش في الأسستانة عشر سنوات باستدعاء من السلطان عبد الحميد فلما عاد الى مصر ألف كتابا عنوانه : « ما هنالك » .

وفي كتابه هذا سخر من البلاط العثماني ومن السلطان عبد الحميد الذي استولى الدجالون على عقله .

وكان هناك دجال اسمه « أبو الهدى الصيادى » أحد أربعة دجالين أوهموا السلطان انهم يعلمون النيب وان الأمة العربية بين ايديهم وانهم قادرون على ان يسيدوا له اقب الخلافة .

وكان الشيخ أبو الهدى قد ذهب الى السلطان ليعلمه رؤيا رآها فى منامه ، ورفض ان يتكلم مع السلطان الذى لا يعرف غير التركية بينما الشيخ لا يعرف غير العربية ، بواسطة مترجم ، لأنه امر أن يبلغ الرؤيا شفاهة وللسلطان شخصا دون وساطة .. وخرج .. وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه مهتل وقال انه سيبلى الرؤيا الآن بنفسه للسلطان لأنه ينكلم التركية .. فسأله كيف أمكنه تعلم اللغة التركية فى يومين فاجاب بأنه جاءه فى المنام كبير المقام ، وملس على فمه فتكلم التركية ، فلما سمع السلطان ذلك انفرد بالرجل ، بعددها أصبح الشيخ اثرا عنده .

الابن :

ولد ابنه محمد المويلحي عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٣٠ وعمل مع والده في « الصباح » وظهر كمؤلف قصصي متمكن فألف « فترة من الزمان » عام ١٩٠٧ واتبعها « بحديث عيسى بن هشام » .

وتعتبر رواية : « حديث عيسى بن هشام » حلقة وسيطة في القصة المصرية والعربية فلم تكن القصص بالطريقة الحديثة الأوروبية معروفة لدى العرب أو المصريين فقد كان القصص يكتب قصصه بطريقة المقامات كمقامات الهمداني والحريري بينما القصص الشعبي يكتبها أو يقولها بطريقة الرواة كسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن والف ليلة وليلة فهذه كلها رغم أنها قصص وروايات إلا أنها تخرج من موضوع لتدخل في آخر وتعتمد على التشويق الذي يقدمه « الأدبائي » الراوي الذي يلقيها مسلسلًا بالمقاهي معتمدا على ربايته ، وكانت المقاهي في ذلك العهد تتنافس في استقدام الرواة ، ويذهب المصريون إليها لشرب النارجيلة « الشيشة » والشاي والاستماع فهي نوع من مسرح المقهى .

أما القضية والرواية التي تعتمد على موضوع وتحليل وشخصيات ولها بداية وذروة ونهاية فهذه لم تكن قد عرفت بعد .

ثم ظهرت عيسى بن هشام مزيج من الأدب الحديث الذي يروي قصة لها حبكة ويضمها موضوع وفي نفس الوقت كتبت بتلك الطريقة التي كتبت بها المقامات في بعض أجزائها حيث نجد الكلام المسجوع وأنواع الجناس

ومراعاة الفسواصل الى آخر المحسنات التي تعطى للكلام رئينا أكثر مما تعطى أفكارا ، ولكن الكاتب فى حيرته بين المقامة والرواية قدم لنا الرواية المصرية الأولى حقا . .

وأهم ما فى الرواية هو ما بها من مفارقات تعرفنا على نوع الحياة فى هذا العهد ، عهد جويدان ، والعهود السابقة كأيام جدها محمد على .

والرواية تقص قصة عيسى بن هشام « الراوى » الذى كان يسير بين القبور ففوجئ بقبر يفتح ويخرج منه رجل طويل القامة مهيب يسأله بعظمة عن اسمه وعمله . فذاخبره ان اسمه عيسى وأنه يعمل كاتباً وهنا نجد مفارقة فى ان الرجل لا يعرف شيئاً عن مهنة الكاتب الا انه الشخص الذى يؤجر لكتابة الرسائل او العرضحالجى كما نسميه اليوم ، أما الكاتب كصحفى ومؤلف فهذه مهنة لم يسمع بها المرحوم .

ويطلب الرجل من عيسى ان يحضر له ملابس وحنصانا وكان الخارج من القبر هو أحمد باشا المنبكي الذى تعجب لأن عيسى لا يعرفه ويجهل بيته وبجانب عيسى ان يفهم الرجل ان البيوت فى مصر أصبحت لها عناوين فلم تعد تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأرقامها .

ويستغرب الباشا لأنه يعرف ان الأرقام هى لتمييز عساكر النظام وأوامر الحكام ولست البيوت .

وأعطاه عيسى ردائه وهو يتعجب ويقول فى نفسه : — كنت أظن ان سلب المارة لا يكون الا من قطاع الطرق فاذا هو أيضا من سكان القبور .

وقبل الباشا الرداء متضررا قائلاً انه كان أحيانا يلبس

مثل هذا الرداء وهو يخرج متنكرا مع ابراهيم باشا لاستطلاع أحوال الرعية ويسأل كيف سيدخلون المدينة وهم فى الليل وهو لا يعرف كلمة سر الليل التى لا تفتح ابواب المدينة ليلا الا بذكرها .

وعيسى لم يسمع بمثل هذا النظام .

فيخبره الباشا بأنها كلمة تصدر كل ليلة من القلعة الى الضباط فى القرة قولات (أقسام الشرطة) وحراس الأبواب ، وتفسير كل ليلة فهى يوما « عدس » وليلة « خضار » وأخرى « حمام أو فراخ » .

وبفهمه عيسى أنه لا داعى لهذه الكلمة أو غيرها وان ابواب المدينة أصبحت مفتوحة لا تفلق .

وسار الاثنان الى القلعة . . وسار خلفهما مكارى بحماره ، والمكارى هو رجل يؤجر الحمير للركوب ، فقد كانت تلك وسيلة الانتقال داخل المدينة فى ذلك الوقت مثلها مثل العربات الكوبيل (ذات العجلتين) أو الفيتون (ذات الأربع عجلات) التى يستعملها الأغنياء ، وكانت للحمير مواقف تقف بها ، واحواض داخل المدينة تشرب منها ، وهى احواض انشأها الفرنسيون أيام نابليون لسقى خيولهم فأصبحت الأماكن التى بها الاحواض تسمى الفرنساوى .

المهم ان المكارى سار بحماره خلفهما ثم أمسك بدبل الباشا وهو يقول له :

— اركب يا أفندى ، لقد عطلتنى وأنا اسير وراءك من الصباح .

وصدم الباشا فلا يليق بمركزه ان يركب الحمار ، وصمم المكارى على ان الباشا أشار اليه وهو يكلم صاحبه

وانه سار خلفه حسب الاشارة ليركب معه ، فان لم يركب فعليه ان يدفع أجرته .

وقامت مشادة بين الباشا والمكاري ، وأمر الباشا عيسى ان يضرب المكاري ، كما لو كان عيسى أحد عساكره فأفهمه عيسى ان الضرب جنحة والقتل جناية ، ولكن الباشا لم يستمع لكلام صاحبه وأمسك بالمكاري وضربه . . وصرخ الرجل منسأديا البوليس ويسأل الباشا عن معنى كلمة بوليس ، فيفهمه عيسى ان معناها « القواس » (أى حامل القوس) .

واقطع الرجل الى قسم البوليس حيث اصطدم بأحد العساكر ووقع فوقه فاعتبر الامر اعتداء على ممثل السلطة وحرر للباشا محضران وأخذت بصماته ، ثم طلب منه احضار ضامن يضمه فخرج عيسى واحضر شيخ الحارة ليضمن الباشا معه .

وحضر مفتش للقسم فأراد الباشا ان يشتكى له ، فما كان من المفتش الا ان أمر بابقاء الرجل للصباح حتى يكشف على سوابقه ويرسل للنيابة .

وتركه عيسى وعاد فى الصباح ليجده قد ارسل لقلم تحقيق الشخصية لفحص سوابقه ، ثم الى النيابة ، ولم يستطع الباشا ان يفهم ان النيابة تنوب عن الأمة كلها فى تطبيق القانون فمعلوماته فى عهده انه لابد ان يكون هناك أمير عظيم يولى نوابا فى ولاية الدماء والاعراض والأموال ، ويحاول عيسى ان يفهم ان وكيل النيابة هو متخصص حصل على شهادة تؤهله للعمل فى هذه المهنة خلاف عهد الباشا الذى كانت الوظائف فيه تعطى للأبناء الأغنياء والتابعين .

وقدمت القضية الى المحاكمة .

ويدور حوار عن المحاكم تذكر فيه المحاكم المختلطة وهذه المحاكم كانت نوعا عجيبا فى ذلك العهد ، فان كل قضية يكون فيها خصم او طرف من الاطراف غير مصرى تنظر امام تلك المحاكم أو أمام المحاكم القنصلية التى كانت مختصة بالجرح التى تقع من رعاياها ضد المصريين او ضد بعضهم البعض .

والحق ان هذه المحاكم كانت سبة فى جبين مصر لم نتخلص منها الا فى عام ١٩٤٨ بعد الفناء الامتيازات الأجنبية واصبح القضاء الوطنى هو المختص بكل المنازعات .

ونعود للباشا فان المحكمة بعد نظر الدعوى وسماع الدفاع حكمت على الرجل بالسجن سنة ونصفا والغرامة والمصاريف ، وقرر المحامى الاستئناف .
وسمع صوت بائع الجرائد ينادى :

« المؤبد والمفطم والأهرام ومصر » الأربعة بقرش . .

ودخل الباشا فى حديث مع عيسى عن الجرائد ، فأخذ عيسى يشرحها له لأنها لم تكن موجودة فى عهده ، ويشرح الباشا ان فى عهده كانت هناك غازيته واحدة بالتركية اسمها « روزنامه وقائع » وأخرى بالعربية اسمها « الوقائع المصرية » تدور فيها أسماء المدائح والتهانى واخبار انتقال الركب العالى .

وفى محكمة الاستئناف كانت جريدة « مصباح الشرق » قد نشرت تحقيقا عن المكارية الذين يعترضون الناس ويلحون عليهم بسوء أدب وقلة تربية وأستعان المحامى بهذا التحقيق وصدر الحكم بالبراءة .

وتبدأ قضية أخرى وهى مطالبة المحامى بأنعابه ،

والباشا لا يملك شيئاً رغم انه كانت لديه كنوز وكنوز
فى زمانه وأيامه .

وثارت مشكلة ان الباشا لا يجد أهله ولا مانه ، ثم
تذكر ان له وقفا ، وبحث بمعاونة عيسى عن الوقف حتى
عثرا على دكان عطار بها شيخ عجوز نظر اليه الباشا وناداه
فهب الرجل واقفا . . وسأله الباشا :

— الست أنت احمد اغا الركبدار ، الا تعرفنى .

وعرفه الرجل بعد ان كشف له الباشا عن علامة من
أثر اللعب بالجريد فى قدمه . وسأله الباشا عن ذريته
فقال الرجل انه لم يبق منها غير حفيد ترك الثروة
لأفرنجى (أجنبى) يديرها وانه يعيش فى الاوتيل اى
اللوكاندة ، ولم يفهم الباشا فافهمه عيسى انه بيت ينزل
به الغرباء نظير اجر للمبيت كالخان فى ايام الباشا .

وظن الباشا ان الولد صابه الفقر ، ولكن عيسى اخبره
ان نزلاء الفنادق الآن هم الأغنياء ، وأخذ يشرح له نظام
الفنادق والمضيفين والطهاة .

وقادهم البيطار (العطار) الى الفندق حيث كان الحفيد
مع خلانه وأصدقائه فضحكوا منهم وطردهم .

وسال الباشا البيطار عن اصدقائه القدامى وهل بقى
منهم أحد فأجابه فلان وفلان وفلان . . وذهب بهما الى
دار أحد هؤلاء الأمراء الذى اعتزل وتفرغ للتعبد والحياة
الروحانية .

ودخلوا عليه ومعه جماعه من أصحابه يتحدثون
فاستمعوا اليهم يذكرون أيام محمد على ولاظ أوغلى تابعه
الذى دبر مذبحة المماليك ، وعن صيحة محمد على المزعجة
التي لم تكن تفارقه فكان يترأر فى مجلسه كزئير الأسد

حتى انه صاح تلك الصيحة يوما وهو جالس امام رسام
أجنبى كان يرسم له صورته فسقط الرسام ميتا .

وان محمد على كان كيسا فى ادارته للأموال حتى انه
علم يوما ان أحد المديرين يغالى فى جمع الأموال فنادى
المدير وأمسك برأسه وأخذ ينزع شعرة من رأسه وأخرى
من قفاه وثالثة من حاجبه . الخ . . ولم يكن المدير
يسأل إلا الما خفيفا ، ثم فجأة نزع محمد على من الرجل
خصلة شعر دفعة واحدة فنبع منها الدم وصرخ المدير ،
فقال له محمد على :

— هكذا تكون معاملة الرعية فى جباية الأموال ، تأخذ
درهما من هنا ، وآخر من ههنا فيخف الوقع على الأهالى
ولا يحسوا بالألم الشديد .

ومرة عين محمد على حسن باشا كويلى حاكما على
أحدى الولايات التى فتحها فخاف الرجل واعتذر لجهله
باللغة العربية ، فقال له محمد على :

— يكفى ان تعرف كلمتين اثنتين هما : « فلوس »
و « كرباج » .

وتنبه الرجال الى عيسى وصحبه فسألوهم ماذا يريدون
فأفهموهم بخبرهم ، ودار حديث خرافة عن الدين عادوا
للحياة ، ولم يطق الباشا الحديث فهب يعارضهم
وينصحهم ! .

ثم أخذوا يسألونه اسئلة سخيقة عن ظلام القبر وعن
اللكين وهل حاسباه باللغة العربية أم التركية أم السريانية ،
لأن هناك خلافا بين العلماء فى هذا الشأن .

والمهم ان الباشا وعيسى خرجوا من عندهم لان الباشا
لم يعجبه حوارهم وخرج خلفهم تاجر كان قد دخل أثناء

الحديث يبيهم قطيفة ، وأعمال الباشا كبرى تقدر لأذه
عرفه .

وذهبوا الى محام شرعى ليرفع قضية للباشا به ، ترد بها
الوقف ، وطلب المحامى توكيلا ، وهو شىء لم يسمع به
الباشا فقال له انه شهادة شاهدين امام المحكمة بان فلان
ابن فلان قد وكل فلان ابن فلان فى المرافعات والمدافعات
.. الخ .. ثم بعد ذلك تستحضر حجة الوقف أو صورة
منها من السجل ، ويعقب ذلك القضية .

ويصف الكاتب السجلات وكيف تأمها فيها للحصول
على صورة الوقفية .

ثم ذهبوا الى المحكمة ويصف عيسى يوما بها .

ثم يصف بائنا للكتب لديه من الكتب القديمة ما لا يقدر
بمال مثل : « حل الرموز لفتح الكنوز » و « أصول
المراسم لفك الطلاسم » و « حسن ارشاد الناس فى
استخراج الذهب والنحاس » و « القول المأثور فى تأثير
البخور » و « قلائد اللؤلؤ والمرجان فى استحضار
الجان » و « خير المواقيت لرؤية العقاريت » .

وذهبوا لاعلان الحفيد بالدعوى فى القصر ، وكان
يتهرب من الدائنين المختلفين من الصيرفى الى الخياط
والاسكافى والحلاق .

وطالت القضية ومرضى الباشا ودار به عيسى على
الاطباء الذين الزمه بعضهم بشراء الدواء من صيدليات
بعينها خوف الفش .. وبعد مدة عثر على طبيب عرف ان
داؤه هو قلق نفسى وان عليه تغيير الجو فسافرا الى
الاسكندرية .

وجاء ذكر لوباء الطاعون فقص الباشا على عيسى كيف

حصد هذا المرض الناس أيام محمد على سنة ١٨٨٤ فحكى له عيسى عن تقدم الطب وعن الميكروبات والميكروسكوب الذى ترى به هذه الدقائق المتناهية الصغر .

واعزل عيسى مع الباشا الذى بلى به يتذاكران ماضى الباشا وما وصلت اليه الحال الحاضرة من ترف فى الفنون وكثرة المطابع والكتب ، وانتشار وسائل الترفيه وانتشار العلوم ووسائل الانتقال من مركبات خيول او بخار كالقطارات ، ثم تكالب العلماء على اقتناء المال والأراضى والاستشفال بالتجارة ، وعن التجار الذين لجهلهم وخمولهم استطاع الأجانب أن يستحوذوا بدولهم بتجارة البلد .

ثم اخذ عيسى الرجل الى احد الافراح حيث صرف الداعى المبالغ الضخمة على الحفل والموائد ، وعلى الطرب والفناء ، وينتقد الباشا الفناء والموسيقى ، وتدور مناقشة عن فائدة الموسيقى فى الشفاء من الأمراض ، وعن آلات الرسم والتصوير دون رسام .

ثم مقابلتهما لأحد العمد من الخلفاء فى حديقة الأزبكية وذهابه الى البار والى البورصة للمضاربة والى مكان للعب ثم الى المطعم الذى لم يفهم الباشا شيئاً من الأطعمة التى به ، ثم ذهب العمدة الى المرقص . . وانتهى الأمر بالعمدة الى رهن أرضه .

وانتهى الكتاب بنقاش عن فائدة المدنية الغربية من عدمه . . ولكن الكاتب ترك القضية مفتوحة ولم ينه القصة نهاية مغلفة تدل على انتصار أى العصرين ، الماضى أم الحاضر . . .

إبراهيم المويلحي وابنه محمد عام الكف وعام الكف

من طرائف ذلك العهد ما حدث بين الصحيفتين « المؤيد » و « مصباح الشرق » من خصام وسجال دام سنينا ، وقد حدث ان المويلحي الابن مؤلف عيسى بن هشام قد تشاجر يوما مع شاب من الاثرياء المتحلقين في مكان عام ، وما كان من الشاب واسمه «محمد نشأت» الا ان ضرب محمد المويلحي بالكف .

وكانت لظمة طيرتها الأخبار والانباء وزادت فيهما ونشر على يوسف الخير في جريدته « المؤيد » بشماتة وسخرية وأطلق على السنة التي وقع فيها الحادث وهي عام ١٩٠٢ اسم « عام الكف » .

وفى ذلك الوقت كان الشاعر الكبير اسماعيل صبري الذي ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٢٢ واشتهر بتورياته المعروفة التي اذكر منها بيته :

طرقت الباب حتى كل متنى
فلمــــا كل متنى كلمتنى
والتورية هنا فى انه طرق الباب حتى كل اى تعب
متنه اى ظهره فلما تعب ظهره كلمته .

والمهم ان هذا الشاعر كان من انصار الشيخ على يوسف فالف قصيدة منها :

اعرنى يابن ابراهيم صسدغا
اخوض به غمار الصافعينا

على ان المويلحى الاب لم يترك الفرصة تفوت فانتهر فرصة قضية طلاق على يوسف من صفية عام ١٩٠٤ وسمى العام الذى رفعت فيه القضية « عام الكفاء » سخريه من على يوسف الذى ثبت بحكم القضاء انه ليس كفؤا لمصاهرة العائلات الكبيرة .

رئيس المجلس التشريعى يشتري ثلاث جاريات :

كان على باشا شريف رئيسا للمجلس التشريعى فى اول عهد الخديوى عباس .

وفى أغسطس عام ١٨٩٤ حضر الى مصر عن طريق الواحات خمسة تجار رقيق وأقاموا بالأهرام ومعهم ست جاريات سودانيات بضاعة حاضرة جاهزة للبيع .

ورغم ان الرق قد الفى من كل بلاد العالم بموجب اتفاقيتين دوليتين هما اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥ واتفاقية بروكسل عام ١٨٩٠ ، كما ان الخديوى اسماعيل قد أصدر قانونا بالغاء الرقيق فى مصر عام ١٨٦٦ ، الا ان الأسر المصرية فى ذلك الحين بما فيهم أسرة الخديوى كانوا يحتفظون ببعض الجوارى ويشترونهن ويستخدمونهن فى قصورهم ، ولهذا لم يكن غريبا أن يحضر تاجر الرقيق ببضاعته ويعرضها للبيع دون خوف كبير .

والمهم ان التجار قد اتصلوا بعلى باشا شريف رئيس

الجلس وعرضوا عليه بضاعتهم فانتقى ثلاث جاريات منهن اشتراهن وبيعت الجاريات الثلاث الأخريات الى الدكتور عبد الحميد بك شافعى الذى احتفظ بواحدة وارسل واحدة للشواربى باشا صاحب الشارع المعروف باسمه فى القاهرة حاليا وارسل واحدة اخرى الى منزل حسين باشا واصف مدبر مديرية اسيوط .

وفى ذلك الوقت كانت هناك مصلحة اسمها مصلحة الرقيق أنشئت لرعاية شئونهن وبحث احوالهن وما استتبع تطبيق قانون الفاء الرقيق من مشاكل واجراءات .

ونمى الى علم ضابط هذه المصلحة بمنطقة الأهرام النبوزباشى محمد ماهر ما حدث فقام بضبط القافلة ، وقبض على أربعة من النحاسين (تجار الرقيق) وهرب الخامس .

وتوجه الضابط الى منزل الدكتور الشافعى الذى اعترف بشراء جارية وارسل الاثنتين الأخريتين الى منزلى الشواربى باشا وواصف باشا .

وكان رئيس المصلحة ضابطا انجليزيا اسمه شيفر بك فلما رفع اليه تقرير بما حدث وبأن الضابط المصرى لم يستطع سؤال شريف باشا احصائه البرلمانية ارسل شيفر يستدعى الباشا .

ولما وصل الباشا لم يسمح له الحاجب بالدخول بل أوقفه بالباب حتى يستدعيه المدير كائى متهم ، وطلبه المدير بعد فترة طويلة .

ثم وجه له شيفر تهمة الاشتراك فى الاتجار بالرقيق ، واحتج الباشا بمركزه وطلب السماح له بالاتصال بالخدوى أو الاوراق له فرفض المدير .

وكانت الامتيازات الأجنبية موجودة وقتها فتحامى الباشا بها قائلا انه رعية ايطالية وليس للمدير أن يسأله فى غير حضور القنصل الايطالى ، وهنا أرسله شيفر مخفورا الى الادارة الانجليزية ليتصرف رؤساؤه .

وهناك تركوه فترة أخرى قبل أن يسمحوا له بإرسال برقية استنجد الى الخديوى .

واجتمع مجلس الوزراء المصرى برئاسة نوبار باشا لبحث الموضوع ثم أمر بتشكيل لجنة لتقرير هل ينطبق قانون الفاء الرق على من يشتري رقيقا ، أم أن العقوبة مقصورة على الاتجار فى الرقيق ولا تمتد الى عملية الشراء .

وشكلت محكمة عسكرية فى ٤ سبتمبر عام ١٨٩٤ قدم اليها النحاسون الأربعة والباشوات المشترين ما عدا شريف باشا حيث أرسلوا الى القنصلية الايطالية يسألونها هل هو ايطالى حقا كما يدعى أم لا ؟

واستحضرت الجوارى وسئلن فى المحكمة ، ويبدو ان محامى الشواربى أو أسرته قد أغروا وأثروا على الجارية زنوبة التى اشتراها لأنها حين طلب منها تعيين الباشا الذى بيعت له ادعت انها لا تراه بقاعة الجلسة ، فلما سئلت عن أوصافه اختلط عليها الأمر فمرة قالت ان له لحية فلما سئلت ان كان بلحيته شيب ترددت ثم قررت انه لم تكن له لحية .

واستمرت المحاكمة أسبوعا ، وسمعت محاكمات الدفاع الذى أخذ يثبت ان الباشوات ذوى سمعة حسنة وان ما حدث لا يعتبر بيعا ولا تنطبق عليه شروط البيع وان القانون يقصر العقاب على الاتجار فى الرقيق دون الشراء ، وتعجب الدفاع لأن الجاريات قد أصبحن حرات

تسمع شهادتهم بينما الباشوات أصبحوا متهمين الى غير هذا الكلام الانشائي .

وفى النهاية صدر الحكم فى ١٣ سبتمبر بالحبس مع الشغل على الدكتور عبد الحميد الشافعى وببراءة الجارين بينما ثبت على الدكتور الشافعى تهمة شراء ودفع ثمن الجاريات الثلاث وارسال اثنتين الى منزلى المتهمين الآخرين .

وبقى المتهم الرابع شريف باشا ، ويظهر ان الحكومة الإيطالية استنكرت التهمة لذا بعثت قنصليتها بالقاهرة الى السلطات المصرية تخطر بها بأنه وان كان الرجل قد قيد نفسه بدفاترها كرمية إيطالية الا انه لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الإيطاليين منذ عدة سنين ولذا يعتبر أنه ليس من رعاياها ولا فى حمايتها وانه قد تنازل بفعله هذا عن حمايتها .

وموضوع الحماية هذا كان أحد مساوىء نظام الامتيازات التى كان السلطان قد منحها للأجانب فى مصر ، ولما كان كل من يقيد فى دفاتر إحدى القنصليات الأجنبية كرمية من رعاياها له حماية خاصة ولا يحاكم او يحقق معه الا أمام محاكم القنصلية أو المحاكم المختلطة ، فان أغنياء المصريين كانوا ينتقون دولة أوروبية يحتمون بها مقابل مبالغ يدفعونها لها ، وكانت القنصليات الأجنبية فى مصر تتخذ من هذه الامتيازات مجالا للكسب والتجارة .

المهم ان شريف باشا لما علم بذلك رفع استقالته الى الخديوى من رئاسة المجلس التشريعى بسبب مرضه واعتكف فى بيته .

وقبلت استقالته وارسل السردار طبيين انجليزيين
للكشف على الباشا فقررا انه فعلا مصاب بمرض فى
القلب وانيميا .
وعلى أساس من هذا التقرير طلب من الباشا كتابة
اعتراف وطلب العفو عنه ففعل ، وصادر الخديوى أمرا
بالعفو عنه .

المسرح والفناء فى عهد جويدان :

يعتبر جورج أبيض أهم مسرحى أنتجته تلك الفترة ،
فهذا الممثل الذى ولد فى بيروت عام ١٨٨٠ وحضر الى
مصر للعمل بمسارحها ارضاء لهوايته وأعجب به الخديوى
عباس فأوفده الى باريس فى بعثة لدراسة التمثيل على
نقطة عام ١٩٠٤ وعاد الى مصر بعد ست سنوات ليقدم
رواياته باللغة الفرنسية كان من اكبر اعمدة التراجيديات .
وقد قدم رواية الملك أوديب لسوفوكليس وأدبب
هذا هو الملك الذى تزوج أمه دون أن يعرف .
ومثل عطليل شكسبير مأساة القيور الذى قتل زوجته
لمجرد شك .

على ان أشهر روياته كانت لويس الحادى عشر التى
ألفها لافينى . ولويس هذا تأمر وهو ولى العهد على قتل
والده واعتلى عرش فرنسا عام ١٤٢٣ وعاش حياته فى
مؤامرات وكان يخشى على نفسه من الاغتيال فحبس
نفسه فى قلعة بليسيه لى تور حتى مات عام ١٤٨٢ .
ثم مثل جورج نفس روياته الفرنسية بالعربية ،
واشتهر جورج بأدوار التراجيديات وفشل حين مثل

كوميديات موليير التى ترجمها ومصرها محمد عثمان جلال كالشيخ متلوف ومدرسة النساء وغيرها .
ثم اشترك مع سلامة حجازى فى المسرح الفئسائى وكونا فرقة .

ومن مغنين ذلك العهد كان يوسف المنيلوى الذى ولد بالقاهرة عام ١٨٥٠ وتوفى عام ١٩١١ وأعجب به السلطان عبد الحميد فقربه اليه وسجلت له عدة أسطوانات قليلة عام ١٩٠٨ منها « كل من يعشق جميل » وأنت فريد الحسن . وبسبب قربه للسلطان عبد الحميد كتبت شركة أسطوانات عمر أفندى ، على أسطواناته « سمع الملوك » .

ومحمد عثمان الملحن والمغنى الذى نظم له الشاعر اسماعيل صبرى أغنية :

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
ورد خدك سلطان على الأزهار
والحب كله أشجان يا قلب حاذر

ومحمد عثمان ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٠ وكان قد سافر مع عبده الحامولى الى الآستانة فسجنهما السلطان عبد الحميد بسبب أغنية غناها الحامولى اعتبرها السلطان سياسية ومطلعها :

عشنا وشفنا سنين ومن عاش يشوف العجب
ومرض عثمان وعبده الحامولى بالسل وماتا به .

ولا أستطيع أن اعدد مغنين وفنانى ذلك العهد فقد كانوا كثيرين حيث ازدهر فيه الغناء بأنواعه الفردى والمسرحى والأوبرالى وتوارثاعته عدة أغان لازالت على الالسنة منها .

يا قمره يا قمره يا قمره
يا محنى ديل العصفورة
ويا بنات اسكندرية
مشيكم على البحر غيه
تلبسوا الكشمير بتلى
والشفافى سكرية

كما ازدهر عالم العوالم والمقصود بهن قائدات فرق
غناء ورقص مخصصة للاستئجار فى الحفلات والافراح
كبسبة كشر التى توفيت عام ١٩١٧ وأشهر أغانيها « الحنة
الحنة يا قطر الندى » وأمينة شخلى التى توفيت
عام ١٩٢٤ وأشهر أغانيها « قولوا لعين الشمس
ماتحماش » .

ولا يمكن ان ننسى منيرة المهدية ومسرحها .
وأهم حدث فى حياة منيرة هو أنه عندما خلع الانجليز
الخدوى عباس زوج جويدان عن العرش ومنعوا
مجلس الوزراء المصرى من الاجتماع لبحث الموقف فلم
يجد رئيس الوزراء حسين باشا رشدى غير ان يجمع
مجلسه فى بيت منيرة المهدية .

وكان المسرح المصرى مزدهرا فى عهد عباس والفرق
كثيرة وقد نجمت كلها فى حى الأزيكية وكانت المسارح
قليلة وحكومية وهى مسرح الكوميدي ومسرح الأزيكية
ومسرح قصر النيل والفرق مضطرة للعمل بالمقاهى .

وفى عام ١٨٩٢ بنت فرقة سليمان القرداحى اول
مسرح أهلى خاص بها وفى سنة ١٨٩٦ اقيم مسرح
لفرقة ابو خليل القبانى بالعتبة وبنى بالخشب واحترق
سنة ١٩٠٠ ثم بنيت دار التمثيل العربى فى حى وش
البركة .

وفى عام ١٩١٠ بنى الخديوى عباس شارعاً فى ارض كان يملكها وبه صالات ومسارح وكازينوهات ذلك هو شارع عماد الدين فانتقلت الفرق للاشتغال بمسارحه كمسرح عباس ومسرح بريتانيا وكازينو دى بارى . . . الخ .

المنفلوطى والصاعقة :

ومن ادباء مصر المنفلوطى الذى ولد سنة ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٢٤ ببلدة منفلوط وتعلم بالأزهر وعمل ثم تحرير جريدة « المؤيد » وله أسلوب ادبى صحفى تحرر فيه بعض الشيء من الحسنات البلاغية وجمع مقالاته فى كتاب « النظرات » و « العبرات » . وقد كتب بأسلوبه روايات عدة ترجمت له من الفرنسية فأعاد صياغتها ولقت نجاحاً كبيراً فى وقتها كرواية « الشاعر » و « فى سبيل التاج » و « مجدولين » .

على ان أهم حادث فى حياته هو القصيدة التى ألفها ضد الخديوى عباس وسجن بسببها .

وفى سنة ١٨٩٧ عاد الخديوى من العاصمة الصيفية وهى الاسكندرية الى العاصمة الشتوية وهى القاهرة وفى ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية بوزرائها ومكاتبهم وكبار موظفيهم تنتقل الى الاسكندرية فترة الصيف من أشهر مايو الى آخر سبتمبر ثم تعود الى القاهرة من اول اكتوبر كل عام .

والمهم انه كانت هناك مجلة ادبية اسمها « الصاعقة » يصدرها اسبوعياً صحفى وأديب اسمه « أحمد فؤاد » .

وظهر عدد المجلة وفي صفحته الأولى قصيدة عنوانها :
« تهنئة مرفوعة الى عباس حلمى بمناسبة عودته
القاهرة » .

وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طلال الملك سيبيد
واقنطف منها :

تذكرنا رؤياك ايام انزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقعدونيا فاصابنا
مصوب سهم بالبللاء سديد
فلما توليتم طفيتم وهكدا
اذا اصبح عباس وهو عميد
كانى بقصر الملك اصبح باندا
من الظلم والظلم المبني مبيد
عباس ترجو ان تكون خليفة
كما ود آباء ورام جددود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنسا
نكون ببطن الأرض حين تسود

واهتزت مصر للقصيدة وقامت قيامة القصر وأصدر
ناظر الحقانية أمرا الى النيابة باعتقال صاحب الجريدة
والتحقيق معه .

واعتقل أحمد فؤاد فقرر أول الأمر انه ناظم
القصيدة وانه سيطبعها مرة ومرات لتنتشر بين الناس
وان كان يأسف على شيء فهو أسفه على ان عدد المجلة
تأخر فى الطبع ولم يظهر فى نفس اليوم الذى عاد فيه
الخدبوى الى القاهرة .

ثم عاد احمد فؤاد وغير اقواله فقرّر ان على يوسف صاحب المؤيد اعطاء نسخة القصيدة وطلب منه نشرها ودفع له مالا مقابل ذلك على ان يقول اذا سئل عنها ان صاحب المقطم والشيخ البكرى هما اللذان اعطاها له .

وامر وكيل النيابة السيد / يوسف سليمان ازاء هذا التضارب فى اقوال الرجل باستدعاء صاحب المطبعة التى طبع فيها العدد .

وقال صاحب المطبعة ان احمد فؤاد احضر القصيدة وكان يرافقه السيد / مصطفى لطفى المنفلوطى .

وقبض على المنفلوطى الذى اعترف بأنه ناظم القصيدة ولكنه لم يكن ينوى نشرها .

وذاعت القصيدة بمصر وتداولت لدرجة ان طلبة المدارس أخذوا ينسخونها باليد ويبيعونها لبعضهم وغيرهم .

وكان هناك صحفى اسمه سليم سركىس يصدر مجلة اسمها « المشر » كلفته سلطات القصر بأن يعثر على شاعر يقلب القصيدة الى مدح فى الخديوى حتى يقضى على الضجة التى اثيرت حولها .

وكان الشاعر المطلوب هو الشيخ عثمان الموصلى والطريقة التى اتبعها لقلب القصيدة هو ان شطر القصيدة فاخذ كل شطر من أبياتها والى من عنده شطرا ثانيا له على نفس الوزن فى مديح الخديوى بقلب المعنى . ونشرتها مجلة « المشر » فأصبحت :

قدوم ولا أقول سعيد
على فاجر هجـو الملوك يريد

لاضرابه بيت من اللسؤم عامر
وملك وان طمال المسدى سيبيد
ومتنا بكم مقعدونيا فاصابنا
رخاء عن الجذب المييد بعبيد

وهكذا .. وطبعاً هناك فرق كبير فى البلاغة .
وقدم الثلاثة للمحاكمة ، صاحب المطبعة واحمد فؤاد
صاحب المجلة ومصطفى لطفى المنفلوطى الشاعر .

ويظهر ان احمد فؤاد كان يعلم انه سيحكم عليه مهما
دافع عن نفسه فانتهازها فرصة للنيل من الأسرة المالكة
بدفاعه الشهير الذى قال فيه :

« ان الرعية لم تسر حقاً بقدم الخديوى ، وان محبة
الرعية للملكها أمر اختياري ، وما من ملك الا وله من
لا يسر بقدمه والملك لا يستطيع ارقام رعيته على محبته
لان الملك يملك اجسام الناس ولا يملك قلوبهم .

وانه ليس اول من جاهر وأعلن للناس مظالم الخديوى
فان احدا لا ينسى قصة مدفع سعيد التى نشرتها صحف
مصر فى وقتها .

فقد استورذ الجيش مدفعاً جديداً من فرنسا وطلب
سعيد تجربة المدفع فى أحد الميادين العامة ، ونقل المدفع
الى أحد الميادين حيث أمر باطلاقه فاقرب منه أحد
رجال الحاشية وقال :

— هل يأمر أفدينا بأن نتمهل قليلاً حتى يمر الناس .
فكان رد الخديوى سعيد :

— ليس عندي وقت ، أطلق النار فنحن لم نستلم
الناس بالعدد .

ثم ذكر الرجل وقائع أخرى نشرت عن الخديوى

اسماعيل منها انه اراد يوما أن يجمع مبلغا من المال
فصنع شارات من الجوخ وزعها على أهالى طنطا مقابل
خمس مائة جنبه للشارة .

ومنها ان رجال اسماعيل حاصروا مرة بلدة بالوجه
القبلى هرب اليها احد خصوم اسماعيل فأمر بضربها
بالمدافع .

ومنها ان الخديوى اسماعيل حين غضب على وزير
ماليته اسماعيل صديق سسلمه الى حرسه الخاص
فكبلوه بالحديد ووضعوه فى غرارة (شوال) وأخذوه
فى باخرة نيلية والقوه فى وسط النيل . .

والهم ان الحكم صدر ببراءة صاحب المطبعة ،
وسجن أحمد فؤاد عشرين شهرا ، وتفريره وأيضا
سجن مصطفى لطفى المنفلوطى سنة وتفريره .

وبعد ذلك بفترة كوفى يوسف سليمان وكيل النيابة
الذى حقق القضية واستطاع ان يكشف عن الشاعر
بأن عين رئيسا للوزراء لفترة من الزمن .

الاحتفال بهروب العريس يوم الصباحية :

اذا كانت مذكرات الاميرة جويدان قد بدأت بوصف
زفاف مصرى فى عهد زوجها الخديوى عباس فان حفلات
الزفاف المصرية لم تسترع انتباه الاميرة وحدها ، بل
استرعت انتباه كتاب أوروبيين قبلها وبعدها ، وقد يكون
من الجميل أن نختم هذا الكتاب بهذه القصة عن زفاف
مصرى استوحيتها من الكاتب الانجليزى ادوارد لين الذى
سنعرف خبره فى سياق القصة .

فهل تتخيل ان العريس فى القاهرة القديمة كان يهرب
من عروسه صـباح ليلة الدخلة فى حفل يسمى
« الهروبة » .

ولنبدا القصة من اولها :

اصبح حنفى ناضجا واراد الزواج ، ولكنه لم يقبل
الزواج باى بنت من بنات الأسرة ممن وصفتهن له أمه ،
فقد كان يعلم ان لها غرضا فى تزويجه من احدى بنات
اخواتها ، بينما ابوه يفكر فى بنات اخوته .. وحتى
لا يفضب اى الطرفين قرر الالتجاء الى الخاطبة ، ففى
ذلك الوقت اى فى اوائل القرن التاسع عشر حوالى
عام ١٨٣٥ ، لم يكن من السهل رؤية بنات الطبقة المتوسطة
او الاغنياء سافرات فى مدينة القاهرة للانتقاء للزواج .

وقدمت له الخاطبة تقريرا بأوصاف العرائس اللاتي
عندها .. والخطابة هنا هى الخالة « أم على » الدلالة
التي تحضر كثيرا الى الدار لتبيع الحلى والاقمشة وغيرها
الى السيدات ، وهى فى الوقت نفسه ، وبحكم دخولها
الكثير من البيوت ، تعرف الجميع ، وترى البنات
والشيخات ، فقلانة بنت فلان جميلة رشيقة صغيرة ،
ولكنها لا تملك مالا ، واهلها ليسوا اغنياء كاهل فلانة
التي ليست فى جمال الاولى .. وهكذا .. هذه
سمينة ، وتلك ربيعة ، وثالثة طويلة ، وأخرى
قصيرة ، و ...

واستقر راي حنفى على خطبة البنت نرجس . وذهبت
أم حنفى وخالتها وأخته مع الخاطبة لزيارة أم نرجس ،
للتعارف ، وفى ذهنهن أنهن اذا لم تعجبهن العروس
ستكتفين بالزيارة .

ودخلت نرجس تحمل صينية القهوة تقدمها لهن ..
 ووجدن ان البنت عروس مقبولة لا يزيد سنهما عن
 الرابعة عشر ، فالبنت اذا زاد سنهما في ذلك الزمن عن
 هذا الحد ، تعتبر قد فاتها قطار الزواج لان بها عيبا ما
 خفيا .. واستطاعت البنت ان تقدم القهوة دون ان
 تسكبها من الاقداح ، ثم انهن قمن بتجميلها واحتضانها
 والتلميس على شعرها الجميل .. الخ .

واثبت فحصهن ان العروس مقبولة ، ولا عيب بها ،
 فصرحن لأمها بفرضهن من الزيارة .

ووافق أهل العروس على الزواج بعد ان وصفت
 الخاطبة العريس لنرجس بأنه شاب صغير السن رشيق
 القوام حليق الذقن ، حسن الهندام ، يحب البقاء في
 البيت ، ويكسب المال الكثير .

وذهب حنفى ، وابوه ، وبعض كبار أسرته الى المقابل
 وكان والد نرجس قد استدعى اخوة له واقارب ، وسأل
 أبو حنفى ، عن المهر المطلوب فقبل له انه ألفى ريال ،
 ولكن أهل العريس استكثروا المبلغ ، ودارت مساومة ،
 انتهت بالاتفاق على ألف ريال ، ثم قرأ الجميع الفاتحة
 كتاكيد للاتفاق ، وحدد ميعاد دفع المهر وكتب الكتاب
 بعد يومين .

وفى اليوم الذى حدد ، ذهب حنفى قبل الظهر ومعه
 الأصدقاء والأقربون الى بيت نرجس ، الذى اجتمع فيه
 عدد من أهلها .. واستقبلهم أبوها .. ولم يكن هذا
 الحفل الكبير فقد اقتصر على الأقربين .

وجلس حنفى امام أبو نرجس باعتباره وكيله
 للعروسة ، على الأرض فى مواجهة بعضهما وامام الفقيه

المأذون له بالتزويج من الوالى ، وأمسك كل منهما اليدين
اليمنى للآخر بحبث يكون الايهامان مرفوعين متلاصقين .
ووضع المأذون فوق يديهما منديلا ، ثم اخذ يعلن كل من
العريس وابو العروسة ما يقوله ، وأشار الى وكيل
العروسة ليقول خلفه :

— زوجتك ابنتى نرجسى البكر . ، على صداق قدره
.. ثم لحننى :

— وأنا قبلت زواجها لنفسى وضمها لكتفى ، وأتعهد
بحمايتها ، وليشهد الحاضرون على ما اقول .
وبعد انتهاء المراسم قرأ انحاضرون الفاتحة ، ووزع
الشراب المحلى بالسكر على الحاضرين ، ووزعت مناديل
مطرزة على اهل العروس . واعطى المأذون منديل العريس
وقد ربطت فيه قطعة نقود ذهبية .. وبقي الجميع لتناول
الفداء .. واتفق على تحديد موعد ليلة الدخلة .

والزفاف الذى ذكرته هو عن وصف قدمه الكاتب
الانجليزى ادوارد وليام لين المولود سنة ١٨٠١ والمتوفى
سنة ١٨٧٦ فى كتابه « المصريون المعاصرون »
(المعاصرون لعهد طبع) وهو الكتاب الذى ترجمته
السيدة فاطمة المحجوب وطبع سنة ١٩٥٧ . ولين هذا
انجليزى احب مصر ، وعاش بها ، والى عنها ، وترجم
الى الانجليزية الف ليلة وليلة ، كما وضع قاموسا عربيا
انجليزيا . وقد زار لين مصر ثلاث مرات الاولى عام
١٨٢٥ والثانية من عام ١٨٣٣ الى ١٨٣٥ والثالثة من عام
١٨٤٢ الى ١٨٤٩ فاستطاع ان يعرف الكثير عن مصر
والمصريين فى ذلك العهد .

وتحددت ليلة الدخلة بعد عشرة ايام من عقد القران ،
وحددت ليلة الجمعة ، فقد جرت العادة ان يحدد

موعد الافراح فى ليلة الجمعة (اى مساء الخميس) أو ليلة الاثنين (اى مساء الأحد) .

وفى الايام العشرة بين الليلتين ، ليلة كتب الكتاب ، وليلة الدخلة ، أرسل حنفى ثلاث مرات بهسداياه من الفاكهة والحلوى الى أهل العروس ، هذا طبعا خلاف ما أرسله لعروسه نرجس نفسها من هدايا اخرى كشال او قرط او خلفه من الأشياء الثمينة .

وفى هذه الايام ، كانت أسرة نرجس مشغولة بشراء الجهاز اى اثاث ومنقولات منزل الزوجية ، وهى أشياء كثيرة مختلفة ، فمن الأرائك والصحاحير (صناديق محكمة لحفظ الملابس) والدواليب الى الحصر والسجاد وأدوات المطبخ ، ثم الثياب والمجوهرات ، وغير ذلك من الأشياء التى تحتاجها العروس ، التى انفق أبوها عليها ضعف ما دفعه حنفى من مهر .

وقد اهتم الأب بأن يكون كرسى العمامة فخما غالى الثمن ، فهذا الكرسى المصنوع من خشب الخيزران ، وله مظلة وغطاء الحرير الطبيعى السميك المحلى بخيوط من الذهب لتوضع عليه عمامة العريس عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه . . ولكن الأب رفض ان يشتري كرسيا آخر لعمامة العروسة ، فهو ليس على هذه الدرجة من انشاء ، وطبعا لم تستطع البنت او أمها الاعتراض او اقناعه بضرورة شراء مثل هذا الكرسى .

ونقل الجهاز من دار والد نرجس الى بيت العريس مجمولا على طاور طويل من الجمال سار حوله الاولاد والبناات وبعض الأعباء يغنون ويصخبون .

وفى بيت العريس جرت استعدادات أخرى ، فقد كلف حنفى من علق الفوانيس والنجف ، كبيرها وصغيرها،

على جوانب البيوت الموجودة بالشارع الذى به البيت ،
كما عاقت عسرات من القناديل الصغيرة بين
الدور ، وجميعها نضاء بالزيت ، وزينت الخيسوط
والحبال التى ربطت بها الفوانيس بعدد كبير من الاعلام
الحربية الخضراء والحمراء ، اما فى البيت فان الباب
قد فتح واعدت الموائد للضيوف طوال هذه الايام الثلاثة .

وكان الاصدقاء والمعارف والاهل ، يرسلون الى البيت
سوانى من النحاس الأحمر أو من الخشب المشفول
والمنقوش مغطاة بناديل من الحرير مطرزة بقماش آخر ،
وفد حبات السوانى هدايا من الارز واللبن والشموع
وغیرها .

وفى هذه الايام الثلاثة أيضا لم تنقطع فرقة موسيقية
عن العزف كما أحضرت عدة راقصات وعدد من المفيين
والمفنيات .

وفى نفس الفترة قامت الخطابة ام على التى عرفت
حنفى على نرجس ، وكذلك الداية المختصة بتوليد ام
العروس والننى قامت على نوليدها لنرجس ، ثم
البلانة المختصة بعمليات الاستحمام والتزيين والتقاط
الشعر الزائد من جسد العروس ، وايضا الدادة وهى
التى حملت نرجس طفلة وقامت على تربيته ، والمرضعة
التى ارضعت العروس وهى وليدة محافظة على صدر
امها من الترهل .

قامت هذه الفرقة من السيدات بشبك شيلان من
الكشمير والحرير المخطط فوق الكتف الايسر عند جنوبهن
.. وركبت كل واحدة حمارا وسرن فى موكب يتصدره
عدة رجال يدقون الطبول .

وطاف هذا الموكب على بيت صديقات نرجس تدعوهن

لمرافقتها الى الحمام .. ويسمى هذا الركب موكب
« المدهناك » .

وكان ابو نرجس رغبة منه في النوفير ، يريد ان يقلل
من عدد المدهنات ولا يستأجر لهن حميرا أو طبالين ،
أو يشتري شيلان ، وتكتفين بالسير على أرجلهن واطلاق
الزغاريد بدل الطبول ، ولكن زوجته لم يعجبها هذا فليس
عندهم ألف نرجس .

وفي ظهر يوم الأربعاء خرجت العروس وخاصتها
وصديقاتها الى الحمام فى زفة الحمام .. وقد تقدم
الموكب رجلان يحمل كل منهما صينية مستديرة مغطاة
بغطاء من الحرير وعليها الملابس الجديدة التى ستلبسها
العروس بعد الحمام ، وخلفهما السقاء .. والسقا هو
رجل يحمل قربة كبيرة ، والقربة هى بالونة ضخمة
مصنوعة من الجلد تملأ بالماء يربطها السقا على ظهره
ويدور يوزع بها المياه على البيوت التى لم تكن قد دخلتها
المياه فى ذلك الوقت .. واليوم هو يسير مع الموكب
وقربه مملوءة ، ومعه كوب من النحاس يصب فيه الماء
من فتحة القربة ويسقى المارة ممن يطلبون الشرب تبركا
بالعروس .

وخلف العروس وصاحباتها سار رجلان أولهما حامل
القمقم وهو يحمل قممقا من الفضة (والقمقم يشبه زجاجة
رائحة كبيرة) وبه ماء الورد أو ماء الزهر ، وهو ينثر الماء
على المارة بين الحين والحين .. أما الرجل الثانى فحامل
المبخرة ، ويحمل مبخرة اختلط فيها البخور المعد لمنع
الحسد والمختلط برائحة عطرة .

وكانت قريبات العروس وصديقاتها المتزوجات لاسرن

فى طليعة الموكب ، اثنتان ، اثنتان ، وهن تلبسن الحبرة
الحريرية السوداء (جلباب يغطى الجسد كله) . ثم
خلفهن العذارى تلبسن الحبرة البيضاء او تتلفحن بشال
ابيض ، وخلف الجميع سارت العروس وخلفها وحوالها
اربعة رجال يحمل كل منهم عمود مظلة قرنفلية زاهية
اللون يظللن بها العروس .

والهم فى مظلة العروس ان يكون لونها زاهيا ملفتا
للأنظار ، كالأحمر الوردى ، أو تكون مخططة بألوان
زاهية كالأحمر والأصفر . الخ . وكان كل عمود من
أعمدة المظلة التى يحملها الرجال ينتهى بمنديل مطرز
معقود حول قمته ، والمظلة ليس لها إلا فتحة واحدة من
الامام فهى مغلقة من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين .
وكانت نرجس تلبس رداء بخفيها تماما وقد غطيت
بشال أحمر من قمة رأسها الى قدميها فام يظهر منها
الا القصبة ، وهى قرص من الذهب رصع بالماس والزمرد
واللؤلؤ وضع فوق رأسها وشبك فى الشال من الخلف
وتدلى منه من الامام فروع من الماس ، وغسيرة من
المجوهرات وقد لبست فوق رأسها طرطورا أبيض من
الورق المقوى .

والقاهرة مدينة يقلب عليها الحرارة ، كما ان ملابس
نرجس العروس وسيرها تحت تلك المظلة يجعل جسدها
يسخن ويفرز عرقه ، لذا فقد سارت امامها امرأة تحمل
مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود مزينة بمرآة فى
الجزء الأسفل من سطحها الامامى ، وسارت المرأة حاملة
المروحة ووجهها للعروس وأخذت تمشى الى الخلف تهوى
لها . . وحوال نرجس وخلفها سارت اربع من صديقاتها .
ومن الضرورى عند خروج الموكب من منزل العروس

ان ينعطف الموكب ، ويسير ناحية اليمين حتى ولو كان الحمام من الناحية الاخرى ، فانهم يتشاءمون من السير جهة اليسار ، كما انه لا يهم ان يسير الموكب فى الطريق الاقصر المؤدى الى الحمام ، بل عادة يكون السير فى منعطفات وشوارع كثيرة بالحى ليراه اكبر عدد من الناس .

وعادة ما يكون والد العروس قد استأجر الحمام كله فى تلك الليلة ، فيخصص لابنته وصديقاتها واهلها ، وفى نهاية الموكب يسير بعض الموسيقيين والطبالين .

وتطلق النسوة الزغاريد بين الحين والحين ، وتجاملهن بعض السائرات فى الطريق أو المتفرجات امام دورهن من السيدات التى يتصادف وترين الموكب فيحيينه بزغرودة أو اثنتين .

وتقضى العروس وصاحباتها عدة ساعات بالحمام تلهون وتفتسلن وتأكلن ، وتستمعن الى العوالم اللاتى تغنى لهن لتسليتهن اثناء الاستحمام .. وفى النهاية يعود الموكب الى بيت العروس نرجس ، والذي يدفع نفقات الحمام وزفة الحمام هو والد العروس .. اما فى منزلها فيكون هناك عشاء قد أعد لها ولرفيقاتها ولغيرهن من الأهل والصحاب من الرجال والسيدات أحباب الأسترتين ، وهذا العشاء على حساب العريس حنفى .. وبعد العشاء يستمر السهر والغناء والرقص ، الذى تقوم به العوالم .

وكانت الحناء قد أعدت وعجنّت فى طشت نحاسى كبير يشبه صينية كبيرة مما يوضع به الفسيل فى أيامنا هذه .. وأخذت نرجس قطعة من الحناء وضعتها فى راحة

بدها . . وقامت كل من السيدات والساحبات بوضع قطعة من النقود الذهبية « كنقوط » فى كفها فلما امتلأ ، الصقت النقود على حافة الطشت بالحناء ، ثم أخذت قطعة أخرى ، وفتحت كفها لتجمع نقوطا جديدا .

وبعد جمع النقوط بدأت عملية تخضيب العروس ، وصاحباتها بالحناء فوضعت الحناء فى كفها وقدميها وربطت بقطع من القماش بقيت حتى صباح الخميس حيث أزيلت الخرق وبقي أثر الحناء ذو اللون الأحمر البرتقالى الداكن أو الفاتح حسب نوع الحناء .

وفى يوم الخميس خرجت نرجس من بيت أبيها الى بيت حنفى فى زفة العروس التى تشبه زفة الحمام ، وأن زادت عليها . . وطبعا ليست كل الأسر على نفس المستوى من الثراء لذلك فإن بعضها يستغنى عن زفة الحمام وبكفى بزفة العروس هذه .

وقد سار أمام الزفة رحلان بحملان السيوف ويتبارزان ، وليس على جسدهما غر السراويل ، مثلهما مثل لأعلى الشيش ، واثنان آخران من الفلاحين يرتديان الجلباب الأصوفى ويتبارزان بالعصى المسماة نبابيت فى لعبة التحطيب ، وقد اشترك فى السبر أمام الموكب بعض من ذوى المهارات والحيل بالألعاب مختلفة لأنهم يعلمون أن أسرته العروسين ستجزل لهم العطاء .

ولما كان السقا رجلا متخصصا فى حمل الاثقال ، فإن عمله يقتضى أن يحمل قربة الماء مليئة ويدور يفرغها فى البيوت عدة مرات فى النهار ، فإن بعض السقائين من ذوى العضلات القوية يقومون بعمل غريب هو حمل قربة مليئة بالرمل المزوج بالماء لتصبح ثقيلة الوزن ،

يحملونها ساعات طويلة لا يقوى عليها سائر السقايين ، ويوصل وزن هذه القربة الى حوالى المائة كيلو يحملها السقاء عند غروب شمس اليوم السابق للفرج ، وتزال يحملها طول الليل وطوال يوم الفرج وقبل الزفة .

وقد سار سقاء من هذا النوع فى الزفة وهو لا زال يحمل قربه حتى غروب الشمس ، أى انه حمل القربة أربع وعشرين ساعة كان فيها تحت رقابة فلم يسمح له بالجلوس فى هذه الساعات الطوال أو النوم ، والطريقة الوحيدة التى سمح له فيها بالراحة كانت هى أن يقعد القرفصاء .

والسقاء يتحمل هذه المشقة لشيين ، الأول الكافاة التى ستدفع له ، والثانى حصوله على لقب « قيم » . . . والسقائون يتنافسون فى الحصول على هذا اللقب الذى يدل فى نظرهم ونظر الناس على الصحة والقوة والقدرة على التحمل ، ولعل هذا هو السبب فى أننا لا زلنا حتى اليوم نطلق على من يسير متباهيا بقوة الجسدية لقب « قيم » كنوع من السخرية ، ذلك أن عصرنا الحديث لا يحتاج الى القوة الجسدية لغير أغراض الصحة ، ويحتاج أكثر منها الى القوة العقلية والدهنية بعد أن أصبح كل شئ يخضع للعقل والعلم .

والمهم أن زفة العسروس نرجس وصلت الى بيت عريسها حنفى ، حيث صعدت الى الدور العلوى المخصص للحريم ، وكانت قد أعدت لهم وليمة وفتناولوا الطعام ثم هناوا وانصرفوا وبقي مع نرجس أمها وأختها وقليلات من القريبات كخالتها وعمتها ، وكذا بقيت البلانة فهذه هى ليلة الدخلة .

وفى هذا الوقت كان حنفى جالسا مع أصحابه
وسدعوويه بالدور الأرضى المسمى بالسلامك والمخصص
للرجال ، وبعد العصر وقبل الغروب ذهب الى الحمام
وبدل ملابسه ، ثم عاد وتناول مع أصحابها طعام
العشاء .

ثم خرج مع أصحابه فى « زفة العريس » الى احد
المساجد القريبة ، وفى طليعة الزفة الموسيقيون بطولهم
ومزاميرهم ، وعند الذهاب للمسجد لم يكن هناك نظام
للزفة .

واكن عند خروج حنفى وأصحابه من المسجد نظمت
الزفة وسارت ببطء عائدة الى منزل العريس الذى من
المفروض انه لا يبدى لهفة على الذهاب الى عروسه ، لذا
بدور الموكب بطرقات المدينة غير متعجل .

وعند العودة يسير الموسيقيون امام الزفة يتبعهم
حاملو المشاعل ، وخلفهم رجلان يحملان عارضة او
عمودا ممدودا أفقيا ، يحمل كل منهما طرفه على كتفيه ،
وعلق به حوالى الستين قنديلا ، او أكثر فى حلقات
اربع كل حلقة فوق الأخرى ، وترسل هذه القناديل
وغيرها من المشاعل ضوءا شديدا ساطعا يشبه ضوء
الكشافات ويبهر العيون .

وخلف الاضواء والمشاعل سار حنفى فى حلقة كبيرة
من أصدقائه وقد ارتدى قفطانا مخططا بخطوط حمراء
وجبة حمراء ، وعلى يمينه ويساره اثنان من أصدقائه
وقد لبسا ملابس تشبه ملابسه ، وحولهم باقى الأصحاب
يمسك بعضهم شمعة ، وبعضهم يمسك بفرع تمر حنة

مزهراً ، أو فرع مزهر لنوع آخر من الأشجار ، أما حنفى وصاحباه فلم يحملوا شيئاً .

وقد لاحظنا فى زفة العروس وزفة العريس ان كلا منهما يسير ومعه اثنان يلبسان مثله تماماً ، وذلك لأن المصريين يخافون من العيون الحاسدة ، ويعتقدون ان هذا السير الثلاثى يكسر من حدة العين .

وبين لحظة وأخرى يقف الموكب لحظة ليستمع الى غناء أحد الواقفين بالحلقة لاحدى أغنيات الزفاف .. وكما يتوقف الموكب يتوقف دق الطبول حتى لا ينفطى على صوت المفنى .. وعادة كان يسير بعض الموسيقيين أيضاً خلف الموكب .. وحين يصل الموكب الى دار العريس ، يدفع النقوط للموسيقيين ، ثم يترك أصدقاءه يجلسون للتدخين وشرب القهوة والشربات ويصعد الى العروس .

ولما كان بحنفى بعض الخجل فانه لم يصعد فوراً ، وانتظر حتى قاده أحد أصدقائه وصعد به درجات الحريم ، ثم تركه ليدخل الى الحجرة التى بها عروسته نرجس .

وكانت نرجس واقفة ومعها البلانة ، فأعطى حنفى البلانة بعض النقود فتركت الحجرة وخرجت . ووقف أمام عروسه وحدهما وقد غطت رأسها ووجهها بشال .

وأخرج حنفى مبلفلاً قدمه لنرجس « ثم كشف وجهها » .. ثم مديده ليرفع الشال ، وتمنعت قليلاً ، أو تصنعت التمنع ، ولكنه أزاح الفطاء عن وجهها وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ! ثم نظر الى وجهها وقال : « ليلة مباركة » .

وردت عليه بتمتة مخنوقة : « الله يبارك فيك » .
ولكن صوتها كان غير مفهوم .
وكانت المراقبات من السيدات قد شاهدن المنظر من
خارج باب الحجرة فانطلقت زغاريدهن .
ونزل حنفى الى اصحابه ، وبقي معهم حوالى الساعة ،
ثم عاد الى عروسه .

وفى صباح اليوم التالى او « الصباحية » حضر الى
الدار بعض اصدقاء حنفى ، فخرج حنفى معهم وهربوا
الى الريف فى نزهة قضوا فيها النهار كله ، وتسمى
هذه النزهة : « الهروبة » .

وقبيل الهروب نجحت محاولات الاصدقاء فى اعادة
حنفى الى منزله الجديد ، لأنه من المفروض ان حنفى
باعتباره عريسا جديدا لا يندفع الى البيت مظهرا ما عنده
من عواطف ، كما انه لا يقبل على سجن الزواج
ومسئوليته بمحض اختياره ، ولهذا فهو قد هرب صباح
زفافه .

وبعد هذه المسرحية التدللية المرحية استطاع اصحابه
اجباره على العودة لعش الغرام . . وهكذا عاد حنفى عند
الفروب فى زفة صغيرة ، تقدمها بعض الموسيقيين وقد
حمل اصدقاءه الورود .

وعادة ما تكون حفلة الهروب هذه على نفقة اصدقائه
الذين يشتركون فى دفع نفقاتها .

وفى اليوم السابع للزفاف ، او « السبوع » استقبلت
نرجس صديقاتها وقريباتها اللاتي اتين لزيارتها وتفصى
اخبار زواجها وعريسها ، وقد حضرت بعضهن فى الصباح
وحضرت أخريات فى المساء . . وفى المساء ايضا استقبل

حنفى بعض أصدقائه ، واحتفل بهم بأقامة حفلة ذكسر
ختمت بمشاء .

وكان اليوم اربعين بعد ليلة الدخلة هو أول يوم يسمح
فيه للعروس بالخروج من المنزل ، فخرجت نرجس فى
الصباح مع بعض صديقاتها الى الحمام ، وعدن فى العصر
الى المنزل وتناولن الطعام وانصرفن . . أما سبب
اختيار اليوم الأربعين لختام شهر العسل فيبدو ان
المصريين القدماء من الفراعنة كانوا يحددون الشهر بأربعين
يوما .

المهم انه بعد هذا اليوم سارت حياة نرجس وحنفى
عادية ، وقد أنجبا صبيانا وبنتا ، ولم أزرها لانهما
عاشا قبل عصرى بأكثر من قرن كامل لأنهما من سكان
قاهرة القرن التاسع عشر .

وهذان العروسان وزفافهما الذى قلت انى اخذت
وصفه من كتاب سير ادوارد لين عن مصر هو وصف
لزفاف عروسين من الطبقة المتوسطة ، اما الطبقات
الفنية فهناك بعض الاختلافات التى أوردها لين .

فهناك وصف لزفاف بنت السيد عمر مكرم نقيب
اشراف القاهرة وقت محمد على باشا والذى بايع محمد
على بالولاية على مصر ، يحدثنا لين عن أشياء عجيبة
لا يمكن تصديقها ولا تصديق أن أحدا يقوم بها الا بسبب
من الفقر الشديد المؤلم فمثلا يقول السير لين وان قرر
انه لم ير ذلك ، انما ينقل عن أصدقاء مصريين ، أن رجلا
سار أمام زفة العروس وقد أحدث شقا فى بطنه واخرج
أمعاءه وحملها أمامه على صينية من الفضة وسار أمام
الزفة حتى نهايتها ، ثم أعاد أمعاءه الى مكانها ، وظل

طريح الفراش عدة أيام حتى شفى من آثار هذا العمل
الاحمق الذى يبعث على التقزز والاشمزاز ، كما ان رجلا
آخر فى نفس الحفل اغمد سيفاً فى ذراعه امام جموع
المتفرجين فى الزفة ، وربط الجرح على السيف دون أن
يخرجه من ذراعه بعدد من المناويل تضرجت بالدماء ..
وفد فسل الرجلان هذه الافعال بسبب الطمع فى مكافأة
سخية .

واكن خلاف هذين المنظرين البشعيين فى فرح بنت
لرجل معين له مكانة خاصة وشهرة خاصة ، نجد لين
يصف زفة الأغنياء من اصحاب الحرف أو غيرهم من
الأعيان بأن الزفة الفاخرة كان يسير فيها أحيانا عدد من
العربات تحمل كل منها جماعة ينتمون الى حرفة أو
تجارة واحدة ، وكل جماعة تقوم باستعراض فيؤدون
صنعتهم أو حرفتهم والعربة سائرة فى الموكب ، وعادة
ما تمثل فى هذه الافراح جميع الحرف المعروفة فى
القاهرة ، كما ان عربة خاصة كانت تسير ، وبها جماعة
يصنعون الفهرة ويقدمونها لمن يطلبها من المتفرجين
والمارة .

وكانت العروس تركب عربة أوروبية مغلقة ، أو تركب
هى وبقية النساء حميرا . وفى اسبوع الزفاف تستحضر
الى الدور فرق طوافة تقوم بتمثيل بعض المسرحيات
الفكاهية التافهة التى يقوم الضحك فيها على تمثيل مناظر
الضرب والخيانة .

وفى بعض بيوت العرسان الأغنياء كانت تعلق ثوبا
أو نجفة كبيرة ضخمة امام الدار ، تبلغ من ضخامتها انها
تجذب انظار الناس وتجعلهم يتجمعون حولها للتفرج
عليها ، وانحدث عن ثراء العريس والعروس وأهلها ،

ولما كان اهل الدار الذين يخافون من عيون الناس
الحاسدة التى قد تتسبب فى سقوط النجمة أو فى نوع
آخر من الأذى للعريس أو العروس ، فانهم يسقطون
كلما راوا تجمعاً كبيراً جرة من أعلى الدار إلى الحوش
فتنكسر وتحدث ضجة تستلفت الأنظار الحاسدة وتبعد
حسدها .

بقيت أفراح الطبقات الفقيرة ، وهذه قال لين عنها انها
لا تختلف عن أفراح الطبقات المتوسطة الا فى التقليل من
المظاهر والتنفقات ...

فهرس

٧	حكاية عائلة جويدان
٢١	الاميرة تصف الافراح والحفلات الرسمية
٢٩	كيف كانت الحياة في سراى المنتزه
٤٣	كيف استطاعت ان تحضر الحفلات الرسمية
٥٥	لماذا كانت تفضل الاقامة فى الاستانة
٦٥	كيف نشأ العداء بين الخديوى واللورد كرومر
٧٨	زيارات الخديوى لأوربا
٨١	العلاقات الخاصة بين الخديوى وامراء العائلة المالكة
٣٨	زوجة الخديوى السابق
٨٧	منشأ الحريم وتطوره
٩٣	الحريم عند سلاطين آل عثمان
١٠٠	الحريم فى مصر
		دراسة عن :
١١١	عهد جويدان

رقم الايداع ٤٠٩٦ - ٨٠

التوزيع المنقول، ١ - ٧٥ - ٧٠٢١ - ٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road : انجلترا
London S.E. 26
ENGLAND

M. Miguel Maccul Cury.

B. 25 de Maroc, 994

Caixa Postal 7406,

Sao Paulo. BRASIL.

: البرازيل

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد
العادية من « كتاب الهلال » الشهري بسعر ٢٠ قرشا
للقارئ في مصر .

سوريا : ٣٠٠ : ق.س ثلاثمائة قرش سوري
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشاً لبنانياً »
الأردن : ٢٥٠ فلساً « مائتان وخمسون فلساً أردنياً »
الكويت : ٣٥٠ فلساً « ثلاثمائة وخمسون فلساً
كويتياً »

العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقي »
السعودية : ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف
ريال »

